العدل ويثبت الحقّ . أمّا الغنيّ إن كان الحقّ له أو عليه ، وأمّا الفقير إن كان الحقّ له أو عليه ، فإنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الأولى بهما الّذى يتولّى شئونهما، ويرعى صالحهما ، ويأخذ الحقّ لهما ، فحذار أيّها المؤمنون أن تتّبعوا هوى النّفس الأمّارة بالسّوء بباعث الحبّ أو البغض ، وحذار أن يحملكم اتّباع الهوى على ألاّ تعدلوا ، وحذار أن يحملكم اتّباع الهوى على أن تعدلوا عن الحقّ وتنحرفوا عنه فتجوروا وتظلموا ، بل الزموا العدل على كلّ حال [(١)] .

وبعد الأمر بالعدل والنّهى عن الظّلم يأتى التّهديد . قال تعالى ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا فإنّ اللّه كان بما تعملون خبيراً﴾ إنّ الجزئيّة الكريمة تشير إلى الصّورتين اللّتين يتمّ عن طريقهما ترسيخ الظّلم وعدم إقامة العدل . الأولى أن يكون ثمّة نقصٌ فى الإدلاء بالشّهادة ، والأخرى أن يكون ثمّة إعراضٌ تامٌّ عن الإدلاء بالشّهادة . إنّ الصّورة الأولى يشملها القول : « وإن تلووا» والمعنى وإن تلووا ألسنتكم فى الإدلاء بالشّهادة فتحرّفوها وتنقصوا بعض جوانبها وتزيدوا بعض جوانبها . وإن جملة «لوى» بمعنى أمال[(٢)] تذكرّنا بقوله تعالى عن المنافقين في سورة المنافقون[(٣)] : ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول اللّه لوّوا رءوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون﴾ بمعنى أمالوها[(٤)] كما تذكّرنا بقوله تعالى عن خائنى الأمانة من أهل الكتاب فى سورة آل عمران[(٥)] : ﴿ وإنّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند اللّه وما هو من عند اللّه ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ .

---

(١) انظر تفسير الطّبرى ٥/٢٠٧ ، وتفسير ابن كثير ١/٥٦٥ ، ومفردات الرّاغب الأصفهانى «عدل» ٣٢٦ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « لوى » ٤٥٧ .

(٣) الآية : ٥ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « لوى » ٤٥٧ .

(٥) الآية : ٧٨ .

وإنّ الصّورة الأخرى يشملها القول : « أو تعرضوا » والمعنى أو تعرضوا وتنصرفوا عن أداء الشّهادة بالكلّيّة.

إن كلاً من ليْ اللّسان بالشّهادة بمعنى تحريفها، والإعراض عن أدائها بالكلّيّة ، ذنبٌ عظيم ، خاصّةً إذا انتهى الأمر بليّ اللّسان إلى قول الزّور الّذى نهى القرآن الكريم عنه ونهت السّنّة النّبويّة المطهّرة . وإنّ العلاج لكلّ هذه الأدواء امتثال أمر اللّه تعالى فى القول(١) : ﴿ ولا تكتموا الشّهادة ومن يكتمها فإنّه آثمٌ قلبه ﴾ وبما أنّ ليْ اللّسان بالشّهادة بالمعنى الّذى عرفنا والإعراض عن أدائها أصلاً من أعمال القلوب وأدوائها الّتى يعلمها اللّه تعالى وحده لا شريك له ، فقد جاء فى الآية الكريمة صفة الخبرة فى حقّ الذّات العليّة : ﴿ وإن تلووا أو تُعْرضوا فإنّ اللّه كان بما تعملون خبيراً ﴾ وإنّ الصّفة « خبيراً » تعنى علم اللّه تعالى المحيط ببواطن الأمور وخبايا القلوب كعلمه جلّ وعلا بظواهرها.

وكيف يتسنّى للإنسان بفضل اللّه تعالى أن يرقى إلى المستوى من الإيمان بحيث لا تأخذه فى اللّه تعالى لومة لائم ؟ أن يزداد إيمانًا إلى إيمانه ويقيناً إلى يقينه وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (١٣٦)

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

تنادى الآية الكريمة الّذين آمنوا على غرار الآية الكريمة السّابقة وتأمرهم بأن يزدادوا إيمانًا باللّه تعالى ربّهم ، وبمحمّد ﷺ نبيّهم ورسولهم ، وبالقرآن الكريم الّذى نزّله اللّه تعالى على رسوله ﷺ منجّمًا فى ثلاث وعشرين سنة ،

(١) سورة البقرة : ٢٨٣ .

ومفرّقاً بحسب الحوادث ومقتضيات الأحوال ، من أجل تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ وأفئدة المؤمنين ، وبالكتب السّماويّة السّابقة التى أنزلها اللّه تعالى جملةً على أنبيائه ، والّتى أشار القرآن الكريم إلى أربعة منها هى صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم صلوات اللّه تعالى وسلامه أجمعين. والمعروف أنّا لا نكاد نعرف عن صحف إبراهيم وزبور داود عليهما السّلام إلا الاسم ، أمّا التّوراة والإنجيل فإنّهما بنّص القرآن الكريم وباعتراف المتخصّصين من أتباع الدّيانتين السّماويّتين ، اليهوديّة والنّصرانيّة ، قد تعرّضا للكثير من التّحريف ، بمعنى التّغيير والتّبديل ، الحذف والإضافة ، التّفسير والتأويل ، الإبداء والإخفاء ، الإعلان والكتمان .

ومن البيّن التّرتيب المنطقىّ لمقوّمات الإيمان الّتى تبدأ بالإيمان باللّه تعالى ، ثمّ برسله ، ثم بكتبه الّتى أوحى بها إلى أولئك الرّسل . ومن البيّن ارتباط هذه المقوّمات بغيرها من مقوّمات الإسلام الّذى يسبق مرحلة الإيمان ومقوّمات الإيمان الّتى تقود جميعها إلى مرحلة الإحسان ذات الرّكن الواحد بأن تعبد اللّه كأنّك تراه فإن تكن تراه فإنّه يراك .

وتأكيداً للأمر للّذين آمنوا بأن يعملوا على زيادة الإيمان يهدّد الّذين كفروا بأنّهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً عن الحق . وحينما نتأمّل العناصر الّتى ذكرها السّياق نتبيّن أنّها فى مجموعها عناصر الإيمان أو أركان الإيمان ، والمعروف أنّها ستّة ، تذكر الآية الكريمة خمسةً منها ، بمعنى أنّها لا تترك سوى الإيمان بالقدر خيره وشرّه من اللّه تعالى .

ومن البيّن كذلك التّرتيب المنطقى الآخر لمقوّمات الإيمان : ﴿ ومن يكفر باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ إنّ الإيمان باللّه تعالى هو أوّل أركان الإيمان ، يلى ذلك الإيمان بالملائكة رسل اللّه تعالى بالوحى إلى رسله جلّ وعلا ، يلى ذلك الإيمان بالوحى أى بالكتب السّماوية ، يلى ذلك الإيمان بالمرسلين الّذين أوحى اللّه تعالى إليهم تلك الكتب ، يلى ذلك الإيمان باليوم الآخر الّذى يُذكر آخِراً لأن ثمرة كلّ صور الإيمان السّابقة إنّما تُقطف فى ذلك اليوم الآخر يوم القيامة المجموع له النّاس المشهود .

(١٧)

من صفات الكافرين والمنافقين
وصفات طريق العودة إلى الله تعالى
الآيات (١٣٧ ـ ١٤٧)

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟
ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ
عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى
ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾
ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ
نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾
إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ
أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟
دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ
إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

من صفات المرتدّين أنّهم يؤمنون ويكفرون ويظلّون مذبذبين كالمنافقين إلى أن يتوفّاهم اللّه تعالى ويدخلهم نار جهنّم . وهذه الصّفة تتحقّق كذلك فى المنافقين الّذين لهم كالكافرين عذابٌ أليم ، والّذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ابتغاء العزّة فيقعون فى الذّلّة ، لأنّ العزّة للّه تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين . ومن صفات الكافرين والمنافقين أنّهم يكفرون بآيات اللّه تعالى ويستهزئون بها ، فعلى المؤمنين ألاّ يقعدوا معهم حتّى يخوضوا فى حديث غير الكفر والاستهزاء وإلاّ شاركهم المؤمنون فى الوِزْر . وكما اجتمع المنافقون والكافرون فى الحياة الدّنيا على الضّلالة ، جمع اللّه تعالى بينهم فى جهنّم . وهؤلاء المنافقون يتربّصون بالمؤمنين الدّوائر ، ويتذبذبون بين المؤمنين والكافرين ويلعبون على الحبلين ، فإن كان للمؤمنين فتحٌ من اللّه قالوا : ألم نكن معكم فأعطونا نصيبنا من الغنيمة ! وإن كان للكافرين نصيبٌ قالوا ألم نغلبكم ونتمكّن من مقتلكم ولكنّا أبقينا عليكم ونمنعكم من المؤمنين فأعطونا نصيبنا من الغنيمة! ولمّا كان ربّ العزّة هو وحده الّذى يعلم ما فى القلوب وما يتمّ فى الخفاء ، فإنّ السّياق يقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالى سوف يحكم بين المؤمنين وبين خصومهم يوم القيامة ، كما يقرّر أن اللّه سبحانه وتعالى لن يجعل فى هذه الحياة الدّنيا للكافرين على المؤمنين سبيلا. وعلى غرار مخادعة المنافقين النّاس ، وبخاصّة المؤمنون ، يقرّر السّياق أنّ النافقون يخادعون اللّه تعالى وهو جلّ وعلا خادعهم فعلاً ، ومن ثَمّ سمّيت العقوبة باسم الذّنب ، لأنّ وبال مخادعتهم منقلبٌ عليهم. وبما أنّهم مضطرون للصّلاة مع المؤمنين فهم يقومون إلى الصّلاة كسالى ويراءون النّاس ولا يذكرون اللّه تعالى إلا ذكراً قليلاً . والمعروف أنّ الذكر لسهولته لم يضع الشّارع الحكيم له نهاية ، وهؤلاء المنافقون لا يذكرون اللّه تعالى فى الصّلاة إلاّ قليلاً فكيف فى غير الصّلاة وكيف بغير الذّكر. والمنافقون متردّدون بين الإسلام والكفر ، وليسوا مسلمين وليسوا كافرين ولكنهم بسبب إضلال اللّه تعالى لهم أسوأ من الكافرين . وإنّ على المؤمنين ألا يتّخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين وإلاّ أخذهم اللّه تعالى بعذابٍ من

المنافق

عظمه)، ولكون المنافقين أسوأ من الكافرين هم فى الدّرك الأسفل من النّار وفى قعرجهنّم ، ولا يوجد من ينصرهم بصرف العذاب أو تخفيفه عنهم . ولمّا كانت رحمة اللّه تعالى تسبق غضبه ومغفرته تسبق عذابه ، فقد بيّن السّياق طريق عودة المنافقين إلى اللّه تعالى ، بأن يتوبوا ، ويعملوا صالحاً ، ويعتصموا بدين الإسلام ، ويخلصوا العمل للّه تعالى . إنّهم إذا حقّقوا هذه الصّفات سيكونون مع المؤمنين الّذين سوف يؤتيهم اللّه تعالى أجراً عظيماً . وإنّما كان عذاب الكافرين والمنافقين شديداً ، لأنّهم يستحقّون ذلك بذنوبهم . وإنّما كان ثواب المؤمنين عظيماً ، لأنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الشّكور لمن أحسن ، العليم بنوايا كلّ إنسان وقوله وعمله . إنّ الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرّة . وهكذا يختم القسم بالآية الكريمة الّتى تبيّن كلاً من عدل اللّه تعالى حين يعاقب ، وفضله جلّ وعلا حين يعفو ويغفر ويرحم ، لارادّ لفضله جلّ وعلا ولا معقّب لحكمه .

الآية رقم (١٣٧)

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ١٣٧﴾

تتحدّث الآية الكريمة عن المرتدّين والّذين أصرّوا على كفرهم حتّى توفّاهم اللّه تعالى متورّطين - والعياذ باللّه - فى الذّنب الّذى لا يغفره اللّه تعالى وهو الإشراك معه جلّ وعلا سواه . إنّ هؤلاء آمنوا باللّه تعالى وبرسوله ﷺ واعتنقوا دين الإسلام وطبّقوا تعاليم القرآن الكريم وتعاليم خير الأنام محمّد عليه الصّلاة والسّلام ، ثمّ ارتدّوا إلى الكفر وغاصوا فى حَمْأته ، ثمّ آمنوا مرّةً أخرى ، ثمّ كفروا مرّة أخرى وغرقوا فى حمأة الكفر ، ثمّ ازدادوا كفراً وضلالاً إلى أن توفّاهم اللّه تعالى . وانظر إلى إمهال اللّه تعالى أولئك الظّالمين من استعمال حرف العطف «ثمّ» الذى يدلّ على التّرتيب مع التّراخى

مرّات أربعاً . إنّهم آمنوا مرّتين اثنتين وكفروا مرّتين اثنتين ، وازدادوا كفراً إلى كفرهم ، وظلّوا كافرين إلى أن توفّاهم اللّه تعالى . لقد أساء أولئك المرتدّون فهم إمهال اللّه تعالى لهم فحسبوه إهمالاً . وإنّ أولئك المرتدّين إن أعلنوا الكفر كانوا كافرين ، وإن هم أبطنوا الكفر وأعلنوا الإسلام كانوا منافقين . وإنّ الآية الكريمة تشمل الفريقين معاً ، وإنّ الآية الكريمة لتقرّر أنّ أولئك الّذين انصرفوا عن دين الإسلام صرف اللّه تعالى قلوبهم ، والّذين عميت بصائرهم زادهم اللّه تعالى عمىً إلى عماهم . إنّهم بسبب ارتكابهم الذّنب الّذى لا يغفره اللّه تعالى وهو الشّرك جاء القول فى الآية الكريمة : ﴿ لم يكن اللّه ليغفر لهم﴾ وإنّهم بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان والضّلالة على الهدى وعمى البصيرة على نورها جاء القول فى الآية الكريمة : ﴿ ولا ليهديهم سبيلا ﴾ والمراد سبيل الحقّ والإيمان والرّشاد .

ولمّا كان حديث السّورة الكريمة من ذى قبل كبيراً عن المنافقين ، وكانت هذه الآية الكريمة تشمل كلاً من الكافرين والمنافقين ، وكان المنافقون أكثر أذىً من الكافرين ، لأن أذى الكافرين معلن وأذى المنافقين خفىّ ، ولأنّ المنافقين يأتون المؤمنين من مأمنهم ، لذا فقد كان فى السّورة الكريمة تحوّلٌ إلى المنافقين من أجل فضحهم لعلّهم يرجعون إلى الصّراط المستقيم ومن أجل أن يحذرهم المؤمنون وهاتان هما :

الآيتان رقم (١٣٨ ، ١٣٩)

قال تعالى : بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

لمّا كانت جملة «بشّر» و «بَشَر» و «أبشر» تستعمل فى الأخبار السّارة الّتى

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى «بشر» ٤٨ ، ٤٩ ومعجم مقاييس اللّغة «بشر» ٢٥١/١.

تبسط بشرة الوجه على جهة الخصوص ، وتبدو بسببها تباشير الوجه وبشره وهو سروره[١] لذا كان القول : ﴿ بشّر المنافقين بأنّ لهم عذاباً اليمًا ﴾ ضرباً من الاستهزاء والسّخرية بالمنافقين . إنّ النّفس إذا سُرّت انتشر الدّم فيها انتشار الماء فى الشّجر[٢] ولاح البشر والحبور فى الوجه لأنّه أشرف أجزاء الجسد وجماع المحاسن بأكثر ممّا يبدو فى سائر الجسد بسبب تدفّق الدّم الّذى يضْفى على البشرة لون الُحمْرة[٣] وإنّ النّفس إذا ساءها خبرٌ واستشعرت العجز واستبدّ بها الحزن مال لون البشرة إلى الصُفْرة[٤] وعلا الوجه غَبَرَةٌ وظُلْمةٌ وسوادٌ وقَتَرة . إنّ هذا هو حال المنافقين حين يرون يوم القيامة العذاب الأليم الّذى يبشّرون به استهزاءً فى هذه الحياة الأولى . وإنّ الآية الكريمة التّالية تعيّن السّبب الّذى من أجله كان الّذل والهوان من نصيب أولئك المنافقين . قال تعالى : ﴿ الّذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزّة فإنّ العزّة للّه جميعا ﴾ .

إنّ هؤلاء المنافقين اتّخذوا الكافرين أولياء ونصراء من دون المؤمنين . وقد جاء فى هذه السّورة الكريمة[٥] القول : ﴿ ومن يشاقق الرّسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونُصْله جهنّم وساءت مصيراً ﴾ إنّ اللّه سبحانه وتعالى وَكَلَ أولئك المنافقين إلى الكافرين الّذين اتّخذوهم أولياء ونصراء . كما جاء فى هذه السّورة الكريمة[٦] القول : ﴿ ومن يتّخذ الشّيطان وليّاً من دون اللّه فقد خسر خسرانا مبينًا ﴾ فهؤلاء الكافرون والمنافقون أولياؤهم الطّاغوت والشّيطان الرّجيم . وقد جاء فى هذه السّورة

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى «بشر» ٤٨، ٤٩ ومعجم مقاييس اللغة «بشر»١/ ٢٥١ .
(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى «بشر» ٤٨ .
(٣) انظر الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر لابن تيمية ٥٥ .
(٤) انظر الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر لابن تيمية ٥٥ .
(٥) الآية : ١١٥ . (٦) الآية : ١١٩ .

الكريمة القول[١] : ﴿ الّذين آمنوا يقاتلون فى سبيل اللّه والّذين كفروا يقاتلون في سبيل الطّاغوت فقاتلوا أولياء الشّيطان إنّ كيد الشّيطان كان ضعيفا﴾ .

وإنّما اتّخذ المنافقون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ابتغاء العزّة والحالة المانعة للإنسان من أن يُغْلَب[٢] والقوّة . ولّما كان المنافقون قد طلبوا العزّة من غير مصدرها بل من مصدر الذّلّ لذلك جاء فى الآية الكريمة الاستفهام الإنكاريّ : ﴿أيبتغون عندهم العزّة ﴾ ؟ ولّما كانت العزّة للّه تعالى وحده لا شريك له وهو الّذى يفيضها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين وقد قال تعالى[٣] : ﴿ وللّه العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون ﴾ لذلك جاء فى الآية الكريمة تقرير هذه الحقيقة : « فإنّ العزّة للّه جميعاً » ولّما كانت رسالة الإسلام الخاتمة قد خصّ اللّه تعالى بها محمّداً ﷺ الّذى أوْحَى إليه القرآن الكريم خير كتبه جلّ وعلا وأشرفها ، لذا فإنّ العزّة الحقيقيّة فى الاستمساك بتعاليم هذا الدّين الّذى أكمله اللّه تعالى ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا. وقد قال تعالى[٤] :﴿ لا إكراه فى الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ . فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن باللّه فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها واللّه سميعٌ عليم﴾ وقال تعالى[٥] : ﴿واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرّقوا ﴾ وحبل اللّه تعالى هو دين الإسلام الّذى بعث اللّه تعالى به حبيبه محمّداً ﷺ خير الأنام وأوحى إليه بالقرآن الكريم وبالسّنّة المطهّرة المبيّنة للقرآن الكريم . وإذا كان المؤمنون مستمسكين بتعاليم القرآن الكريم فإنّ الكافرين والمنافقين يكفرون بالقرآن الكريم ويستهزئون به وإلى ذلك أشارت :

---

(١) الآية : ٧٦ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « عزّ » ٣٣٢ .

(٣) سورة المنافقون : ٨ .

(٤) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٥) سورة آل عمران : ١٠٣ .

الآية رقم (١٤٠)

قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

إنّ القول : ﴿ وقد نزّل عليكم فى الكتاب ﴾ يذكّرنا بالقول فى الآية الكريمة السّادسة والثّلاثين بعد المائة : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا آمنوا باللّه ورسوله والكتاب الّذى نزّل على رسوله ﴾ فقد نزّل اللّه تعالى القرآن الكريم منجّمًا كما نزّل عزّ وجل فى معنى هذه الآية الكريمة قوله تعالى عزّ من قائل فى سورة الأنعام[1] : ﴿ وإذا رأيت الّذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتّى يخوضوا فى حديث غيره . وإمّا ينسينّك الشّيطان فلا تقعد بعد الذّكرى مع القوم الظالمين. وما على الّذين يتّقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلّهم يتّقون﴾ إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة قد نزّل عليكم أيّها المؤمنون فى الكتاب العزيز والقرآن المجيد « أن : مخفّفة واسمها محذوف أى أنّه »[2] ضمير الشّأن[13] أنّه إذا سمعتم آيات اللّه تعالى آي الذكر الحكيم يكفر بها الكافرون ويستهزئ بها المنافقون فلا تقعدوا معهم ولا يجمعكم بهم مكان واحدٌ حتّى يخوضوا فى حديثٍ غير القرآن الكريم وغير كلام اللّه تعالى العزيز .

ولمّا كان الخوض بمعنى الشّروع فى الماء والمرور فيه أصلاً ، ويستعار فى الأمور، وأكثر ما ورد فى القرآن ورد فيما يُذَمُّ الشّروع فيه[4] فالملاحظ أنّ الآية

(١) الآية : ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) الجلالين .

(٣) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣/ ١٧٥ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى « خوض » ١٦١ .

الكريمة تصف تحوّل الكافرين إلى الحديث الآخر بأنّه بمثابة الخوض ، بالمعنى الّذى عرفنا ، خاصّةً وأنّهم سبق أن كان لهم خوضٌ من هذا القبيل فى حقّ القرآن الكريم. وإنّ جملة « يخوضوا » توحى بأنّ أهل الباطل ليس لديهم سوى تحوّل فى الحديث من مستنقع آسن إلى مستنقع آخر ، فعلى المؤمنين ألا يشهدوا ذلك الزّور ولا تلك المواطن وبؤر الكذب والباطل وقد جاء فى وصف عباد الرّحمن قوله تعالى(١) ﴿والّذين لا يشهدون الزّور وإذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً﴾ وشهادة الزّور تعنى الإدلاء بها وشهود مجالس الباطل .

والآية الكريمة تنهى المؤمنين بالقول : ﴿ فلا تقعدوا معهم ﴾ والمعروف أنّ لفظه القعود تعيّن كلاً من الهيئة والاتّجاه إليها . إنّ اتّجاه القاعد من أعلى إلى أسفل، من القيام إلى القعود ، وإنّ اتّجاه الجالس من أسفل إلى أعلى ، من الاضطجاع مثلاً إلى الجلوس ، وفى النّهاية هيئتا القاعد والجالس واحدة . إنّ النّهى عن القعود نهىٌ عن النّيّة . فلا ينبغى للمؤمن أن يكون لديه نيّةٌ وقصدٌ فيتعمّد القعود مع هؤلاء الخائضين فى آيات اللّه تعالى بالباطل . إنّ المطلوب من المؤمن فى هذه الحال أن يمرّ مرًّا كريماً وأن يفارق المجلس إلاّ إذا غيّر الخائضون ميدان الحديث فكان غير القرآن الكريم وغير دين الإسلام ، وإلاّ إذا استطاع المؤمن أن يقوم بدور إيجابىّ بأن يقوم بواجبه فى الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة هنا تأمر المؤمن بعدم القعود ، وأنّ آية سورة الأنعام تأمر بالإعراض عنهم . ومن البيّن أنّ المؤمن وقد فطن لحقيقة الكفر والاستهزاء والخوض يتصرّف فى ضوء ذلك . إنّه مع الكفر والاستهزاء مغادرة للمكان . وإنّه مع الخوض بدرجاته المختلفة تكون المغادرة أو الإعراض، بمعنى أن يري المؤمنُ الخائضَ عَرْضه وجنبه دليلاً على الإعراض والهمّ بالانصراف والمغادرة .

وتهدّد الآية الكريمة المؤمنين بأنّهم إن لم يفعلوا ذلك فإنّهم فى الإثم واستحقاق العذاب مثل الخائضين فى آيات اللّه تعالى : ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ .

(١) سورة الفرقا : ٧٢ .

ولمّا كا الكافرون والمنافقون مجتمعين فى الحياة الدّنيا على الشّرور والآثام، وقد رتّب السّياق ما يخصّ كلاً من الكافرين والمنافقين على التّوالى فى القول : ﴿يُكْفَرُ بها ويستهزأ بها﴾ لأنّ الكفر هو الأصل والنّفاق تبع ، ولمّا كان النّفاق أشدّ على الإسلام من الكفر بسبب قدرة المنافق على التّغلغل فى أعماق الجماعة المسلمة لإعلانه الإيمان ، فقد قدّمت الآية الكريمة بشأن عذاب جهنّم المنافقين على الكافرين الّذين مصيرهم جميعاً جهنّم وبئس القرار . قال تعالى : ﴿ إنّ اللّه جامع المنافقين والكافرين فى جهنّم جميعاً ﴾ .

وهكذا يتبيّن أنّ حبّات عقد المعانى فى الآية الكريمة تأخذ مواضعها الملائمة بناءً على ما يقتضيه السّياق ويتطلبه الموقف ، وسوف نتبيّن أنّ إحدى آيات هذا القسم تضع المنافقين فى الدرك الأسفل من النّار للسبّب الّذى من أجله تقدّم ذكر المنافقين هنا على الكافرين .

والآية الكريمة التّالية تبيّن واحداً من أسوأ المواقف ضدّ الإسلام والمسلمين من قِبَلِ المنافقين إخوان الكافرين فإلى :

الآية رقم (١٤١)

قال تعالى : ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

بشّر السّياق من ذى قبل المنافقين الّذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين بأنّ لهم عذاباً أليماً . ويبيّن السّياق هنا أنّ أولئك المنافقين هم الّذين يتربّصون بالمؤمنين الدّوائر وينتظرون بهم المصائب. قال تعالى : ﴿ الّذين يتربّصون بكم ﴾ والخطاب كما يبدو للمؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ ، وهو يتّجه وراء ذلك إلى المؤمنين فى كلّ زمان ومكان . وحينما نتأمل استعمالات جملة

يتربّص في القرآن الكريم نتبيّن أنّها تعني الانتظار الواعي المتأنّي . ووراء ذلك هو انتظارٌ متأنٍ يغلب عليه نيّة الشرّ من قِبَل المتربّص والمنتظر . وإنّ من أوضح المواطن في القرآن الكريم الّتي تدلّ على هذه المعاني قوله تعالى عن كفّار مكّة في سورة الطّور(١) : ﴿أم يقولون شاعرٌ نتربّص به ريب المنون . قل تربّصوا فإنّي معكم من المتربّصين﴾ وقوله تعالى عن الأعراب في سورة التّوبة(٢) : ﴿ومن الأعراب من يتّخذ ما يُنْفِق مَغْرمًا ويتربّص بكم الدّوائر . عليهم دائرة السَّوْء . واللّه سميعٌ عليم﴾ . وكأنّ معنى القول : « الّذين يتربّصون بكم » الّذين يتربّصون بكم الدّوائر وينتظرون لكم الموت .

وتبيّن الآية الكريمة الكيفيّة الّتي يوالي بها المنافقون الكافرين ويلعبون بها على كلّ الحبال . قال تعالى : ﴿ الّذين يتربّصون بكم فإن كان لكم فتحٌ من اللّه قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيبٌ قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾ .

إنّ المنافقين يتربّصون بالمؤمنين الدّوائر وريب المنون . فإن كان للمؤمنين فتحٌ من اللّه تعالى وظفرٌ على الكافرين ونصرٌ مبينٌ وغنيمة خلافاً لما انتظره المنافقون وتمنّوه وطال تربصّهم به قالوا للمؤمنين ألم نكن معكم بإيماننا وبأجسادنا وبقلوبنا في معارككم الّتي خضتموها . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة « فتح » في حقّ ما يناله المؤمنون من ظفر لأنّه فتحٌ من اللّه تعالى حقًا وصدقا، تفتح به الأعين العُمْي والآذان الصّمّ والقلوب الغلف ، بينما تستعمل لفظة « نصيب » في حقّ ما يناله الكافرون من حظّ وانتصار . قال تعالى : ﴿ فإن كان لكم فتحٌ من اللّه قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب ﴾ولا يستعمل مع النّصيب أيّ لفظة يفهم منها أنّ لهذا النّصيب نصيباً من الخير، بينما جاء مع الفتح الجارّ والمجرور:«فتحٌ من اللّه» .

(١) الآية : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) الآية : ٩٨ .

وإنّ هؤلاء المنافقين يقولون للكافرين الّذين لهم نصيب ، فى أسلوب الاستفهام التّقريرى كذلك ﴿ ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ ومعنى: « ألم نستحوذ عليكم » ألم نغلبكم ونتمكّن من مقاتلكم وننتصر عليكم ؟ إنّ الحاء والواو والذّال أصلٌ واحد ، وهو من الخفّة والسّرعة . ومن الباب : استحوذ عليه الشيّطان ، وذلك إذا غلَبه وساقه إلى ما يريد من غيّه[1] قال تعالى[2] : ﴿ استحوذ عليهم الشيّطان فأنساهم ذكر اللّه . أولئك حزب الشيّطان . ألا إنّ حزب الشيّطان هم الخاسرون﴾ إنّ الشيّطان الرّجيم غلب المنافقين وساقهم إلى ما يريد من غيّه وانتصر عليهم وقادهم سريعاً إلى مهاوى الرّدى . وإنّ هذا شعور المنافقين حينما يجىء على لسانهم القول للكافرين : «ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » إنّهم يتبجّحون بأنّهم قادوا المشركين بسرعة إلى مهاوى الرّدى وغلبوهم وتمكّنوا من مقاتلهم ولكنّهم حسبَ زعمهم قد منعوا أولئك المشركين من المؤمنين حتّى نال المشركون حظّهم من النّصر ونصيبهم من الظّفر. وبطبيعة الحال قد كذب المنافقون فى حقّ كلّ من المؤمنين والكافرين لأنّهم لا يهمّهم إلا مصلحتهم الشّخصيّة . ولمّا كانت مصلحة المنافقين تقتضى أن ينتصر الكافرون ، لذلك كانوا في أعماقهم منحرفين إلى الكافرين متمنّين أن يكون النّصر حليفهم دائمًا لأنهم شركاؤهم فى حقيقة الكفر.

ولمّا كان ادّعاء الكافرين متعلّقاً بالنّوايا والقلوب ، ولا يعلم حقيقة شىء من ذلك إلا اللّه تعالى عالمُ السرّ وأخفى فقد جاء فى الآية الكريمة القول : ﴿فاللّه يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ إنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الّذى سوف يحكم بينكم أيّها المؤمنون وبين المنافقين والكافرين وسوف يجازى كلاً بناءً على نيّته وقوله وعمله .

(١) معجم مقاييس اللّغة : « حوذ » ٢/ ١١٥ .

(٢) سورة المجادلة : ١٩ .

ولمّا كان الموقف مجال صراع بين الإيمان والكفر الظّاهر والخفى فإنّ الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة تقرّر وعد اللّه تعالى ، ووعده جلّ وعلا هو الحقّ، بأنّه جلّ وعلا لن يجعل فى هذه الحياة الدّنيا للكافرين بنوعيهم على المؤمنين صادقى الإيمان سبيلاً ولا سلطاناً ولا حجّة . قال تعالى : ﴿ ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ .

والحقيقة أنّنا أمام درسٍ من أعظم الدّروس القرآنيّة وهو أنّ المؤمنين صادقى الإيمان حقّاً سيكونون دائماً وأبداً أصحاب اليد العليا والمنزلة الأسمى . فإذا حدث العكس فذلك أكبر دليلٍ على أنّ المؤمنين قد خانوا الأمانة فعليهم أن يتوبوا إلى اللّه تعالى توبةً نصوحاً وأن يؤمنوا ويعملوا الصّالحات وأن يصلحوا من خطئهم.

وإذا كان المنافقون يخادعون عباد اللّه تعالى من مؤمنين وكافرين فإنّهم لا يتورّعون عن القيام بالمحاولة ذاتها فى حقّ الذّات العليّة وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (١٤٢)

قال تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

أشارت الآية الكريمة التّاسعة من سورة البقرة إلى خداع المنافقين وإلى انقلاب وبال الخداع عليهم . قال تعالى : ﴿ يخادعون اللّه والّذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ وهذه الآية الكريمة من سورة النّساء تشير إلى الخداع وإلى أمورٍ أخر يتّصف بها المنافقون .

إنّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ يخادعون اللّه وهو خادعهم ﴾ تقرّر أنّ هؤلاء المنافقين يجتهدون فى إظهار خلاف ما فى أنفسهم وفى إعلان غير ما

ينطوون عليه من فساد وحقد دفين على الإسلام والمسلمين . وهؤلاء المنافقون الّذين أعمى اللّه تعالى بصائرهم يخادعون مَنْ ؟ إنّهم يخادعون اللّه تعالى الّذى يعلم سرّهم ونجواهم ويعلم كلّ غيب . وحينما يكون باطن المنافقين كظاهرهم وسرّهم كعلنهم فى حقّ الذّات العلية ، فهل أولئك المنافقون يخادعون الذّات العليّة أم أنّهم يخادعون أنفسهم؟ إنّهم يخادعون أنفسهم . وحينما يريد المنافقون بخداعهم الحصول على الخير لأنفسهم وطرد الشّرّ فيحصلون على الشّرّ ويطردون الخير فهل هم الخادعون فى الحقيقة أم المخدوعون ؟ إنّهم هم المخدوعون . إنّ اللّه سبحانه وتعالى بيّن لحبيبه ﷺ بعض صفات المنافقين على نحو قوله تعالى فى سورة محمّد(١) عليه الصّلاة والسّلام : ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم فى لحن القول واللّه يعلم أعمالكم﴾ والمعروف أنّ من أسماء سورة التوبة الفاضحة لأنّها فضحت المنافقين وعرّتهم أمام العباد .

ويلاحظ أنّه يجىء فى حقّ المنافقين القول : « يخادعون اللّه » الدّالّ على تجدّد المخادعة واستمرارها ، بينما يجىء عن الذّات العليّة القول : « وهو خادعهم » الدّالّ على أنّ المخادعة قد تحقّقت ، وأنّ المنافقين يحيق بهم مكرهم كلّ مرّةٍ يريدون أن يخادعوا اللّه تعالى . لقد سميّت العقوبة باسم الذّنب .

ولمّا كان المنافقون مندسّين فى صفوف المسلمين وكانت الصّلاة الّتى هى عماد الدّين أظهر أنواع العبادات الّتى يؤديها المسلمون جماعةً وأكثرها تكراراً ، وكان على المنافقين أن يثبتوا أنّهم مؤمنون وليسوا كافرين ، فقد كانوا يشاركون المؤمنين أداء هذا الرّكن جماعةً فى المسجد النّبوىّ الشريف . فكيف عبّرت الآية الكريمة عن أداء المنافقين الصّلاة ؟ قال تعالى : ﴿ وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يراءون النّاس ﴾ ومن البيّن أنّ ثمّة فرقاً كبيراً فى المعنى بين أقام الصّلاة وقام إلى الصّلاة . يقول الرّاغب الأصفهانى(٢) :« ولم يأمر تعالى بالصّلاة

(١) الآية : ٣٠ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى « قوم » ٤١٨ .

حيثُما أمرَ ولا مَدَح به حيثُما مدح إلا بلفظ الإقامة تنبيهاً أنّ المقصود منها توفيةُ شرائطها لا الإتيانُ بهيئاتها نحو : أقيموا الصّلاة ، فى غير موضع ، والمقيمين الصّلاة . وقوله : وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى ، فإنّ هذا من القيام لا من الإقامة » وهكذا يتبيّن أنّ ما يهتم له المنافقون أن يقوموا للصّلاة شكلاً لا روحاً ، وحساً لا معنى ، كى يأمنوا على دمائهم وأعراضهم وأموالهم. وانظر إلى « إذا » ظرف الزّمان المستقبل المتضمّن معنى الشّرط المتعلّق فى الآية الكريمة بجملة « قاموا » إنّا نفهم منه اضطرار المنافقين للقيام إلى الصّلاة تحت وطأة الإحساس بشدّة مراقبة المؤمنين لهم وإحصاء حركاتهم وسكناتهم عليهم. وإنّ هذه الوطأة وليدة انتباه المؤمنين لهم ووليدة شعور المريب الّذى يكاد يقول خذونى .

وعلى الرّغم من هذه البواعث الخارجيّة للمنافقين للقيام إلى الصّلاة وأحاسيسهم الدّاخليّة ، فإنّ هذه البواعث والأحاسيس لمّا كانت غَيْرَ موصولة باللّه تعالى ، فإنّ منتهى ما فعله المنافقون الّذين لا يريدون بقيامهم وجه اللّه تعالى هو أنّهم حينما قاموا حسّاً للصّلاة قاموا كسالى متثاقلين متثائبين غير خفاف ولا نشطين .

وإنّ الآية الكريمة لتنصّ على السبّب الّذى من أجله قام المنافقون إلى الصّلاة كُسالى : «يراءون النّاس» إنّ كلّ ما يريده المنافقون من القيام إلى الصّلاة هو الرّياء والسّمعة وحسن الأحدُوثَة . وبما أنّ طاقة البشر محدودة ، ثمّ إنّ للمؤمنين حدوداً عليهم أن يقفوا عندها وهى الأقوال والأعمال ولا يتعدّوها إلى حقائق النّوايا ودخائل القلوب وكان المنافقون على علم بكلّ ذلك، لذلك هم يقفون مع المصلّين شكلاً ويراءون النّاس ، وذلك منتهى ما يريدونه من النّاس ومنتهى ما يريده النّاس منهم أو يستطيعونه منهم .

وأين حقّ اللّه تعالى وقد وقف المنافقون فى الصّلاة بين يدى اللّه تعالى ربّ العالمين ؟ الجواب فى القول : ﴿ ولا يذكرون اللّه إلا قليلاً ﴾ إنّ المنافقين

لا يذكرون الله تعالى إلا قليلا فى الصّلاة الّتى قاموا إليها بباعث الرّياء . ولمّا كانت الصّلاة هى الرّكن من أركان الإسلام المتكرّر الظّاهر ولا يقوم به المنافقون إلا رياءً ولا يذكرون الله تعالى فيه إلا قليلاً ، فذلك معناه أنّ المنافقين لا يذكرون الله تعالى سوى ذلك الذّكر القليل فى الصّلاة لأن ما وراء الصّلاة من أركان وواجباتٍ يقلّ عن الصّلاة ظهوراً وتكراراً ، قال تعالى ﴿ إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كُسالى يراءون النّاس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ ثبت فى الصّحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال : أثقل الصّلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبوًا. ولقد هممت أن آمر بالصّلاة فتقام ثمّ آمر رجلاً فيصلّى بالنّاس ثمّ أنطلق معى برجالٍ ومعهم حزمٌ من حطبٍ إلى قومٍ لا يشهدون الصّلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنّار(١) .

والآية الكريمة التّالية تبيّن تردّد المنافقين بين الكفر والإيمان فإلى :

الآية رقم (١٤٣)

قال تعالى :

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

حينما ننظر إلى معنى الذّبذبة فى الأساس نتبيّن أنّها بمعنى نَوْس الشّئ المعلّق فى الهواء(٢) بمعنى تحرّكه . ثم استعير لكلّ اضطراب وحركة . قال تعالى: مذبذبين بين ذلك(٣) إنّ هذا هو حال المنافقين من الحركة والاضطراب، والأخذ ذات اليمين، والاتجاه صوب اليسار ، وكأنّهم ذلك الشئ المعلق فى

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٦٨ .
(١) معجم مقاييس اللّغة « ذبّ » ٢/٣٤٩ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى « ذبّ » ١٧٧ .

الهواء والّذى تعبث به الرّياح . ومعنى القول : « مذبذبين بين ذلك » متردّدين[١] ومضطربين لا يثبتون على حال[٢] ذبذبهم الشّيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم متردّدون بينهما متحيّرون . وحقيقة المذبذَب الّذى يُذَبّ عن كلا الجانبين أى يذاد ويدفع فلا يقرّ فى جانب واحد[٣] .

ومعنى القول : ﴿ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ أنّ المنافقين لا إلى هؤلاء المؤمنين ولا إلى هؤلاء الكافرين ، إنّما هم كما وصفهم الحديث الذى رواه مسلم عن ابن عمر عن النّبىّ ﷺ قال : مثل المنافق كمثل الشّاة العائرة[٤] بين الغنمين تعير إلى هذه مرّة وإلى هذه مرة لا تدرى أيّهما تتبع[٥] .

ومع أنّ المنافقين ليسوا بالمؤمنين الخالصين وليسوا بالكافرين المحضين فإنّهم بنصّ الآية الكريمة أقرب إلى كونهم كافرين . قال تعالى : ﴿ ومن يضلل اللّه فلن تجد له سبيلا﴾ لقد جاء فى أولى آيات هذا القسْم القول : ﴿ إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً لم يكن اللّه ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾ وقد عرفنا أنّ المغفرة تتعلّق بذنب سبق ارتكابه ، وأنّ الهداية تتعلّق بالمستقبل . إنّ اللّه سبحانه وتعالى لم يكن ليهدى المصرّين على الكفر سبيلا . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تقرّر أنّ المنافقين اختاروا طريق الضّلالة وأصرّوا على ذلك الاختيار فزادهم اللّه تعالى ضلالاً إلى ضلالهم ، وليس لهم سوى طريق الضّلال هذا ، فلن تجد لهم أيّها المخاطب سبيلاً إلي الحقّ ، ولا طريقاً إلى نور الهداية . وهذا المصير الأليم للمنافق قد بيّنه الحديث النّبوى الشّريف . عن قتادة قال : ذكر لنا أنّ نبيّ اللّه عليه السّلام كان يضرب مثلاً للمؤمن والمنافق والكافر كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر فوقع المؤمن فقطع ، ثمّ وقع المنافق

(١) تفسير الطبرى ٥/ ٢١٥ والجلالين .
(٢) تفسير ابن عطية ٤/٢٦٨ .
(٣) الكشّاف ١/ ٤٣٢ .
(٤) يقال : عارت الشّاة إذا ذهبت وجاءت متردّدة .
(٥) تفسير ابن كثير ١/٥٦٨ .

حتّى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر أن هَلُمَّ إليّ فإنّى أخشى عليك. وناداه المؤمن أن هلمّ إليّ فإنّ عندى وعندى يحصى له ما عنده . فما زال المنافق يتردّد بينهما حتّى أتى عليه الماء فغرّقه . وإنّ المنافق لم يزل فى شكٍّ وشبهةٍ حتّى أتى عليه الموت وهو كذلك(١) .

ولمّا كان المؤمنون إخوةً وكان الكفر ملّةً واحدةً فقد أرشدت الآية الكريمة التّالية إلى الأخوّة الإيمانية ووجوب تقويتها فإلى :

الآية رقم (١٤٤)

قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

تنادى الآية الكريمة الّذين آمنوا باللّه تعالى ربّاً ، وبمحمّد ﷺ نبيّاً ورسولاً، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن الكريم دستوراً ، وتنهاهم أن يعملوا عمل المنافقين باتّخاذ الكافرين أولياء ونصراء وأصدقاء من دون المؤمنين . إنّ أولياء المؤمنين يجب أن يكونوا المؤمنين وليس الكافرين . إنّ المؤمنين لو اتّخذوا الكافرين أولياء لهم من دون المؤمنين ونصراء ضدّ المؤمنين وأصدقاء وهم الّذين لا يألون المؤمنين خبالاً ولا يقصّرون فى العمل على كلّ ما يورث المؤمنين الخبال والضلال والفساد والاضطراب ، فإنّهم باتّخاذهم الكافرين أولياء وليس المؤمنين كأنّهم يريدون أن يجعلوا للّه سبحانه وتعالى عليهم سلطاناً مبينًا وحجّةً دامغةً وسببًا موجباً لأن يذلّهم اللّه تعالى بعد عزّ ، ويهينهم بعد كرامة ، ويفقرهم بعد غنى، ويأتى بدلاً منهم : ﴿ بقومٍ يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون فى سبيل اللّه ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه واسع عليم﴾(٢) . وإنّ لسان حال الآية

(١) تفسير الطّبرى ٥/ ٢١٦ ، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٩ .

(٢) سورة المائدة : ٥٤ .

الكريمة ينطق بهاتين الآيتين الكريمتين التّاليتين من سورة المائدة[١] قال تعالى : ﴿ إنّما وليكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا الّذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة وهم راكعون . ومن يتولّ اللّه ورسولَه والّذين آمنوا فإنّ حزب اللّه هم الغالبون ﴾ .

ولّما كان المنافقون أسوأ حالاً من الكافرين ، وكان المنافقون الّذين ذاقوا وقتًا من الأوقات حلاوة الإيمان يمثّلون ظاهر الإيمان وشكله وصورته ، فقد تحدّثت الآيتان الكريمتان التّاليتان فى تبيين حال المنافقين وفى تبيين الطّريق التى يستطيعون عن طريقها أن يحققّوا باطن الإيمان ولبّه وحقيقته وهاتان هما .

الآيتان رقم (١٤٥ ، ١٤٦)

قال تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

لّما كان المنافقون فى قعر جهنّم وكانت النّظرة إليهم من أعلى إلى أسفل فقد استعملت الآية الكريمة لفظة « الدّرك » والدّرَك بفتح الرّاء والدّرْك بسكون الرّاء لغتان [١] والدّرْك كالدّرْج لكن الدّرْج يقال اعتباراً بالصّعود والدّرْك اعتباراً بالحدور، ولهذا قيل : دَرَجات الجنّة ودَرَكات النّار[٢] والنّار دَرَكات كما أنّ الجنّة دَرَجات[٣] وهكذا يتبيّن مظهرٌ من مظاهر عظمة هذه اللّغة الشّريفة ، ومظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى عجيب استعماله لهذه اللّغة .

ولو تصوّرنا النّزول فى دركات أى سلمّ وكان ثمّة انتهاءٌ إلى آخر درك

---

(١) الآية : ٥٥ ، ٥٦ .

١ (٢) تفسير الطّبرى ٢١٧/٥ .

٢ (٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى « درك » ١٦٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٧٠ ومعجم مقاييس اللغة : « درك » ٢/٢٦٩

فإنّ ذلك لا يعنى الوصول إلى قعر المكان بسبب البعد بين آخر درك وبين قاع المكان الّذى فيه السّلم . وإنّه من أجل الدّلالة على أنّ المنافقين فى قعر جهنّم جاء استعمال لفظ الدّرك الّذى يدلّ على آخر دركات السّلّم باعتبار النّزول وعلى أقصى القعر ، كما جاء وصف الدّرك بأنّه الأسفل . وهكذا يتبيّن أنّ الدّرك يشمل آخر دركات السّلم حتى أقصى القاع وأنّ وصف الدّرك بأنّه الأسفل حدّد مكان المنافقين فى قاع جهنّم وأنّه فى أقصى القاع والعياذ باللّه : ﴿ إنّ المنافقين فى الدرك الأسفل من النّار﴾ .

وفى عجز الآية الكريمة : ﴿ ولن تجد لهم نصيرا ﴾ خطابٌ للمؤمنين ابتداءً ولكلّ من تدبرّ القرآن وراء ذلك بأنّك لن تجد أيّها المخاطب نصيراً للمنافقين يخرجهم من قعر جهنّم أو يمنع العذاب عنهم أو يصرفه أو يحولّه أو يهوّنه .

ولمّا كانت رحمة اللّه تعالى تسبق غضبه فقد أرشدت الآية الكريمة التّالية المنافقين إلى الكيفيّة الّتى يستطيعون عن طريقها بعون من اللّه تعالى وفضل أن يهجروا طريق النّفاق ويسلكوا طريق الإيمان حتّى يصلوا إلى أعلى درجات الجنّة قال تعالى : ﴿ إلاّ الّذين تابوا وأصلحوا واعتصموا باللّه وأخلصوا دينهم للّه فأولئك مع المؤمنين . وسوف يوتى اللّه المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تستثنى من المنافقين ، وتنقذ من أقصى قاع النّار ، بفضلٍ من اللّه تعالى ونعمة ، مِنْ أولئك المنافقين الّذين كادوا يلحقون بالدّرك الأسفل من النّار ويدركونه(١) تستثنى وتنقذ الّذين تابوا فى هذه الحياة الدّنيا إلى اللّه تعالى توبةً نصوحاً من النّفاق فآمنوا إيمانًا صادقًا باللّه تعالى وبرسوله ﷺ وبدين الإسلام وبالقرآن الكريم ، وأصلحوا أعمالهم بعد أن كانت فاسدة ، وبذلك قدّموا الدّليل العملى على إيمانهم الصّادق ، واعتصموا بحبل اللّه تعالى مع إخوانهم المؤمنين ، وقاموا بما يجب عليهم تجاه شهادة الحقّ شهادة ألاّ إله إلاّ

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٧٠ ، معجم مقاييس اللّغة « درك » ٢/ ٢٦٩ .

اللّه وأنّ محمّدًا رسول اللّه واستمسكوا بدين الإسلام وطبّقوا تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين ، وأصلحوا دينهم للّه تعالى فصفت سرائرهم وخَلَصَتْ نيّاتهم وأرادوا بأعمالهم الصّالحة وجه ربّهم الأعلى .

وهكذا يتبيّن أنّ التّوبة بمعنى الإيمان تجبّ النّفاق السّابق ، وأنّ العمل الصّالح الموافق لتعاليم الإسلام يمثّل أوّل الشّرطين للأعمال الّتى يتقبّلها اللّه فضلاً منه ونعمة، وأنّ الاعتصام بحبل اللّه تعالى يؤكّد فحوى الشّرط الأوّل ، وأنّ إخلاص الدّين للّه تعالى يمثّل الشّرط الآخر للأعمال التى يتقبّلها اللّه تعالى.

إنّ أولئك الّذين تتحقّق فيهم تلك الصّفات سيكونون مع المؤمنين الّذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون بإذن اللّه تعالى .

وقد عبّرت الآية الكريمة عن ثواب المؤمنين بالقول : ﴿ وسوف يؤتى اللّه المؤمنين أجراً عظيمًا ﴾ والأجر العظيم هو الجنّة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . جعلنا اللّه تعالى منهم بعفوه جلّ وعلا وبفضله .

وتختم آيات القسم بل آيات هذا الجزء الخامس من القرآن الكريم بالآية الكريمة الّتى فيها التّنبيه إلى عدل اللّه تعالى وفضله فإلى :

الآية رقم (١٤٧)

قال تعالى :

مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ
إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

تسأل الآية الكريمة بقصد النّفى : ﴿ما يفعل اللّه بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾؟ إنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الغنيّ ، وإنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يظلم

(١) انظر معجم مقاييس اللّغة « درك » ٢/ ٢٦٩ .

مثقال ذرّة ، والحسنة يضاعفها جلّ وعلا أضعافاً كثيرة ، فلا ظلم اليوم ولكن هنالك العدل . فمن ارتكب ذنبًا إن شاء الله تعالى عذّبه بعدله ، وإنّ شاء غفر له بفضله . لا يُسأل جلّ وعلا عمّا يفعل وهم يُسْألون . وإنّ عباد الله تعالى حينما يشكرون لله تعالى نعمه وآلاءه ويقومون بحقّها ، وحينما يؤمنون إيماناً صادقاً فلا يحذفون من الدّين شيئاً ولا يضيفون شيئًا ، فإنّ الله سبحانه وتعالى يثيب أولئك العباد ولا يعذّبهم . وهكذا يتبيّن أنّ المراد بالاستفهام فى الآية الكريمة النّفى .

ويقرّر التّذييل أنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الشّاكر لمن شكر له ، وهو العليم ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بحقيقة إيمان من ادّعى الإيمان فلا يخفى عليه جلّ وعلا شئٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، وسيجازى كلاً بنيّته وقوله وعمله إن خيرًا فخير وإن شراً فشرّ . وهكذا تتوزّع معانى الآية الكريمة بين عدل اللّه تعالى وفضله .

(١٨)

لا يحبّ الله تعالى الجهر بالسّوء من القول
وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين
الآيات (١٤٨ ـ ١٥٢)

۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن
سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ
حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ
يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

للكافرين وللمنافقين الكثير من سيّئ القول ، ويكفى أنّهم يشتركون فى صفة الكفر . وإنّ السيّئ من القول لدى الكافرين والمنافقين الّذى ما كان يصحّ أن يوجد أصلاً رشّح لحديث هذا القسم عن المؤمنين من جانب القول الّذى أريد لصفة السّوء أن تبعد عنه ، ولصفة الخير أن تلصق به . إنّ المؤمن المأمور بأن يقول قولاً سديداً ، وبأن يقول الكلمة الّتى هى أحسن ، تبيّن له الآية الكريمة الأولى أنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يحبّ منه الجهر بالسّوء من القول ، وذلك على غرار جهر بعض الشّعراء بالسّوء من القول فى حقّ من لم يجزل لهم العطاء ! وتستثنى الآية الكريمة من ظُلِم ، فإنّ من حقّه أن يعلن عن الظّلم الّذى حلّ به ، وأن يدعو على من ظلمه دون اعتداء، وإلاّ كان هو الآخر ظالمًا . ولمّا كان القول والجهر به يسمعان ، وكان الظّلم والسكوت على الظّلم يعلمان ، كان التّذييل فى الآية الكريمة : ﴿ وكان اللّه سميعاً عليماً ﴾ . وهكذا يتبيّن العدل فى الآية الكريمة حينما أنصفت المظلوم . وإذا كان ثمّة ظلمٌ قد حلّ بمظلومٍ هنا ، وكان هذا المظلوم يصحّ أن يصله من غير ظالمه خير ، فإنّ الآية الكريمة كى تعيد التّوازن إلى نفس المظلوم تذكّره بهذا الخير ، وتخيّره بين إبدائه جهرًا وسراً وبين كتمانه ، وكى تنقله من مرحلة العدل فى الآية الكريمة السّابقة إلى مرحلة الفضل تتّخذ من هذا التّخيير الّذى أحدث التّوازن فى نفسه منطلقًا إلى الفضل فتحثّه على العفو عن السّوء ، وتتّخذ من مرحلة الفضل الّتى بلغها بالعفو مطيّة للحديث عن عفو اللّه تعالى الواسع وعمّا فوق هذا العفو من قدرة مطلقة ، وفى ذلك تنبيهٌ للعبد إلى أنّ ثوابه حينما يعفو عن قدرة أكبر ، فليحرص على جزيل الثّواب . قال تعالى : ﴿ إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفو عن سوء فإنّ اللّه كان عفواً قديراً ﴾ وهكذا يتبيّن التّدرّج فى الآيتين الكريمتين من العدل إلى الفضل فى حقّ العباد ، إلى أكبر الفضل فى حقّ ربّ العباد .

وممّا له علاقةٌ بالجهر بالسّوء من القول ، بل ومن الفعل أيضًا ، ما يقوم به الكافرون باللّه ورسله من قول وفعل ، وما يقوم به الّذين يريدون أن يفرّقوا بين اللّه ورسله بالإيمان باللّه تعالى والكفر برسله ، وما يقوم به الّذين يؤمنون

ببعض الرّسل ويكفرون ببعض ، ويؤمنون ببعض الكتب أو الكتاب ويكفرون ببعض . إن أولئك الّذين يريدون أن يتّخذوا لهم بين الإيمان والكفر سبيلاً يسلكونه ويدعون الآخرين إليه هم الكافرون حقّاً الّذين أعدّ اللّه تعالى لهم العذاب المهين فى جهنّم يوم القيامة ، ولهم فى هذه الحياة الأولى الخزى العظيم. لقد تحدّث السّياق عن جهر هؤلاء بالسّوء من القول والفعل ، كما تحدّث فى المقابل عن المؤمنين باللّه تعالى ربّاً ، وبمحمّد ﷺ نبيّاً ورسولاً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن الكريم دستوراً ، والذين يؤمنون بكلّ الرّسل وبكل الكتب السّماويّة . إنّ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وثواب أعمالهم . أمّا الآخرون الكافرون فإنّ عليهم أن يتوبوا إلى اللّه تعالى توبةً نصوحاً بالدّخول فى دين الإسلام ، كي تشملهم مغفرة اللّه تعالى ورحمته اللّتان نصّ عليهما هذا التّذييل : ﴿ وكان اللّه غفوراً رحيما ﴾ ولمّا كان قد مرّ بنا فى التّذييل النّصُّ على العفو وعلى القدرة فكأن هذه الصّفات الأربع المتدرجة جاءت وفق هذا النّسق العجيب عفو ، قدرة ، مغفرة ، رحمة . إنّ الرّحمة تنطوى على المغفرة والقدرة والعفو . وإنّ المغفرة تنطوى على القدرة والعفو . وما أجمل العفو حينما يكون عن قدرة .

الآية رقم (١٤٨)

قال تعالى :

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

تبيّن الآية الكريمة أنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يحبّ الجهر بالسّوء من القول، ولا يرضى عن الإعلان بالسّيّئ من الكلام ، وغير السّديد من البيان ، بمعنى أنّ اللّه سبحانه وتعالى يحبّ الحسن من القول ويرضى عن السّديد منه ، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وقل لعبادى يقولوا الّتى هى أحسن . إنّ

(١) سورة الإسراء : ٥٣ .

الشّيطان يَنْزَغُ بينهم . إنّ الشّيطان كان للإنسان عدوًا مبيناً ﴾ والمعنى أنّ ربّ العباد يأمر المؤمنين بأن يقولوا للآخرين وعنهم الكلمة التى هى أحسن ، لأنّ الشّيطان يفسد بينهم . وإنّ ما لايحبّه اللّه تعالى يعاقب عليه .

وتستثنى الآية الكريمة مَنْ ظُلِم ، فإنّ من حقّه أن يُعْلن على رءوس الأشهاد عن ظُلامته ، بل وأنْ يدعو على من ظَلمه ، شريطة ألاّ يعتدي فى دعائه ، عن ابن عبّاس : لا يحبّ اللّه أن يدعو أحدٌ على أحد إلاّ أن يكون مظلوما ، فإنّه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله : إلا من ظلم . وإن صبر فهو خيرٌ له(١) .

إنّ الإسلام يسمح للمسلم للّه ربّ العالمين أن ينتصر لنفسه حينما يُبْغَى عليه، وأن يدفع الظّلم عن نفسه ، وأن يعاقب المسئ إليه بمثل إساءته شريطة ألاّ يتجاوز دفع الظّلم إلى ارتكاب الظّلم والبغى والعدوان . وعلى الرّغم من إعطاء الإسلام المؤمن هذا الحقّ ، لأن من النّفوس المظلومة ما لا يعالج إلا بأخذ هذا الحقّ ، فإنّ الإسلام يدعو إلى ما هو خيرٌ من الانتصار للنّفس ، إلى الصّبر ، بل إلى العفو وبخاصّة عند القدرة ، بل إلى الإحسان . وليس وراء هذا السّمو سموّ . وإنّ هذه المعانى المختلفة نستطيع أن نفهمها من مثل قوله تعالى(٢) : ﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدّنيا وما عند اللّه خيرٌ وأبقى للّذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون . والّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحشَ وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والّذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصّلاة وأمرهم شورى بينهم وممّا رزقناهم ينفقون . والّذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيّئةٍ سيّئةٌ مِثْلُها فمن عفا وأصلح فأجره على اللّه . إنّه لا يحبّ الظّالمين . ولَمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنّما السّبيل على الّذين يظلمون النّاس ويبغون فى الأرض بغير الحقّ . أولئك لهم عذابٌ أليم . ولمن

(١) تفسير الطّبرى ٦/ ٢ ، وتفسير ابن كثير ١/ ٥٧٠ ، وتفسير القرطبى ١٩٩٧ .
(٢) سورة الشّورى : ٣٦ - ٤٣ .

صبر وغفر إنّ ذلك لَمِن عزم الأمور﴾ وقوله تعالى (١) : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصّابرين ﴾ وقوله تعالى (٢): ﴿ الشّهر الحرام بالشّهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا اللّه واعلموا أنّ اللّه مع المتّقين ﴾ وقوله تعالى (٣) : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضُها السّموات والأرضُ أعِدَّت للمتّقين. الّذين ينفقون فى السّرّاء والضَّرَّاء والكاظمين الغيظَ والعافين عن النّاس . واللّه يحبّ المحسنين ﴾ وقوله تعالى (٤): ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السّيّئة . ادفع بالّتى هى أحسنُ فإذا الّذى بينك وبينه عداوةٌ كأنّه وليٌ حميم ، وما يلقّاها إلاّ الّذين صبَرُوا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيم ﴾ .

ومن البيّن أنّ التّذييل : « وكان اللّه سميعاً عليما » يجئ فيه صيغة المبالغة السّميع والعليم . ونستطيع أن نفهم أنّ كلاً من الصّيغتين تعود إلى معنى من المعنيين الرئيسيّين فى الآية الكريمة . إنّنا بصدد قولٍ وبصدد الجهر به . ومن البيّن أنّ صفة السّمع هى الّتى تتعامل مع الصّوت بمختلف أنواعه ودرجاته ، وإلى ذلك نبّهت صيغة المبالغة فى الآية الكريمة : « سميعا » . ومن البيّن كذلك أنّ الآية الكريمة لم تأذن بالجهر بالسّوء من القول إلا فى حال الظّلم ، وحقيقة الظّلم وكذلك حقيقة كتمانه لا يعلمهما إلا العليم الخبير جلّ وعلا عالم السّرّ وأخفى ، وإلى ذلك نبّهت صيغة المبالغة : « عليما » وهكذا يتبيّن دور التّذييل فى الآية الكريمة ، كما يتبيّن التّناغم بين صيغتي المبالغة « سميعاً عليما » الدّالّتين على صفتى السّماع والعلم ، وبين مضمون الآية الكريمة الّذى هو بحاجة إلى هاتين الصّفتين بالذّات .

وإذا كانت الآية الكريمة متعلّقةً بموقف الإسلام من الجهر بالسّوء فإنّ الآية الكريمة التّالية متعلّقةٌ بموقف الإسلام من الجهر بالخير فى حال الإحسان ، وبالعفو عن السّوء فى حال الإساءة فإلى :

---

(١) سورة النحل : ١٢٦ .
(٢) سورة البقرة : ١٩٤ .
(٣) سورة آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤ .
(٤) سورة فصّلت : ٣٤ ، ٣٥ .

الآية رقم (١٤٩)

قال تعالى :

إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن
سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

الآية الكريمة متعلّقةٌ بالآية الكريمة السّابقة ومترتّبةٌ عليها ، لقد جاء فى الآية الكريمة السّابقة القول: ﴿لا يحبّ اللّه الجهر بالسّوء من القول إلا من ظُلم﴾ ويجئ فى هذه الآية الكريمة القول ﴿أو تعفو عن سوء﴾ وكأنّ ثمّة سوءاً ارتكب فى حقّ إنسان وظلمًا تمّ فى حقّه، فتسمح الآية الكريمة السّابقة للمظلوم أن يجهر بالسّوء الّذى تمّ فى حقّه، ويعلن عن الظّلم الّذى انتابه ، ويرفع صوته بالدّعاء على من ظلمه من غير اعتداء، بينما تدعو الآية الكريمة التّالية المظلوم إلى أن يعفو عن السّوء الّذى ألمّ به، والظّلم الّذى انتابه، وبذلك يكون تحوّلٌ فى الآيتين الكريمتين من العدل إلى الفضل .

والآية الكريمة فى دعوتها إلى العفو عن السّوء وعن الظلم تمهّد لذلك بلطيفه تتعلّق بالخيرالّذى يصل من شخص آخر إلى هذا المظلوم . إنّ الآية الكريمة فى سبيل أن تستميل قلب المظلوم إلى العفو عمّن أساء إليه تذكّره بالخير الّذى حصل عليه والإحسان الّذى وصل إليه من شخص آخر فاضل وإنسان محسن . إنّ الآية الكريمة تخاطب النّاس أجمعين وفيهم المظلوم الّذى أسئ إليه قائلة : إن تبدوا أيّها النّاس الخير الّذى وصل إليكم من أهل الفضل وتعلنوا الإحسان الّذى انتهى إليكم من أهل البرّ ، أو تخفوا ذلك فى أنفسكم وتكتفوا بالدّعاء فى صمت لمن تفضّل عليكم ، خاصّةً وقد نصحنا المحسن بإخفاء إحسانه فى مثل القول(١) : ﴿ إن تبدوا الصّدقات فنعمّا هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفّر عنكم من سيئاتكم . واللّه بما تعملون

---

(١) سورة البقرة : ٢٧١ .

خبير ﴾ إن تبدوا أيّها النّاس الخير الّذى وصلكم من محسنين أو تخفوه ، وفى مقابل الخير الّذى وصلكم ، إن تعفوا عن السّوء الّذى لحق بكم من آخرين ، فإنّ اللّه سبحانه وتعالى هو دائمًا وأبداً العفوّ الّذى يعفو عن السّيّئات ، وقد عفوتم عمّن أساء إليكم فأحسنتم ، وهو دائما وأبداً القدير ، هكذا فى صيغة المبالغة ، على أنّ يعاقب وعلى أن يثيب . إنّه جلّ وعلا الّذي سبقت رحمته غضبه ومغفرته عذابه يعفو عن عباده وهو القدير على عقابهم . وإنّ عبادى وقد عفوا امتثالاً لأمرى واقتداءً بعفوى وابتغاءً لمرضاتى يستطيعون أن ينالوا الثّواب الأكبر حينما يكون عفوهم عن قدرة وحينما يمتثلون لأمرى وأنا العفوّ القدير .

ومن البيّن أنّ الأسلوب فى الآية الكريمة يُفْهَم منه تخيير المخاطبين وبخاصّة فى القول : « إن تبدوا خيراً أو تخفوه » إنّهم مخيّرون بين الجهر بالخير وإبدائه ، وبين إخفائه وكتمانه ، وذلك التّخيير فى مقابل ما جاء فى الآية الكريمة السّابقة من أنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يحبّ الجهر بالسّوء من القول. إنّ كلاً من المعنيين فى صدر كلٍّ من الآيتين بمثابة كفّة الميزان الّتى تقابلها كفّة أخرى من أجل تحرّى العدل والوزن بالقسطاس المستقيم . إنّ فى الكفّة الأولى نهيًا عن الجهر بالسّوء من القول ، وإنّ فى الكفّة الأخرى تخييراً بين إبداء الخير الّذى وصل الآن بدلاً من السّوء أو إخفائه . إنّ فى الكفّة الأولى سوءًا يُنْصَحُ بالتخلّى عن إعلانه ، وإنّ فى الكفة الأخرى خيراً يخيّر من وصل إليه بين إبدائه وإخفائه ، كما يُنْصَح بطريقٍ غير مباشرٍ بالتّحلّى به .

وإذا كان الإبداء بمعنى الإعلان فإنّ الإخفاء بمعنى الكتمان فى النّفس . وليس من الممكن بشأن الخير سوى الإبداء فى أى صورة من إعلانٍ وإسرار ، أو الإخفاء عن كلّ عباد اللّه تعالى ، ولهذا جاء فى الآية الكريمة النّصّ على هاتين الحالتين بالذّات «إن تبدوا خيراً أو تخفوه» .

وكما لاحظنا التّوافق والتّناغم بين التّذييل فى الآية الكريمة السّابقة وبين الصّدر ، نلاحظ هنا التّوافق والتّناغم والتّدرّج . لقد لاحظنا التّخيير بشأن

القول : «إن تبدوا خيراً أو تخفوه» وهذا معنى شبه مستقلّ . كما لاحظنا التفضيل بشأن القول : أو تعفو عن سوء » وهذا معنى آخر شبه مستقلّ . ولمّا كان المعنى الآخر هذا يقف عند العفو بمعنى ترك المؤاخذة على الذّنب ، وذلك غالباً منتهى ما يمكن أن يصل إليه المظلوم المغلوب هنا ، فإنّ التّذييل لمّا كان متعلّقًا بالذّات العليّة فإنّه ابتدأ بالعفو الّذى انتهى إليه المخلوق ، وتحوّل من العفو الّذى يقدر عليه هذا المخلوق ويقف عنده وقد يتعدّاه فى القليل النّادر إلى قدرة محدودة ، تحوّل إلي القدرة المطلقة للذّات العليّة . وقد تبيّنّا أنّ الإشارة إلى القدرة جاءت فى صيغة المبالغة ، فاللّه سبحانه وتعالى هو القدير على كل شئ. إنّ عفو اللّه تعالى ومغفرته ورحمته ، كلّ ذلك وليد قدرة القادر على كل شئ الفعّال لما يريد جلّ وعلا الّذى لا يعجزه شئٌ فى الأرض ولا فى السماء.

وهكذا يتبيّن التّدرّج العجيب فى الآية الكريمة من عفو العباد المحدود إلى عفو ربّ العباد المطلق ، إلى قدرة ربّ العباد مالك الملك ذى الجلال والإكرام الّذى بيده ملكوت كلّ شئ وإليه يرجع جميع الخلائق. فى الحديث الصحيح : ولا زاد اللّه عبداً بعفو إلا عزّاً(١) .

وإذا كانت الآيتان الكريمتان السّابقتان ذواتَيْ علاقة بالسّوء المنهيّ عن الجهر به المأمور بالعفو عنه ، فإنّ الآيتين الكريمتين التّاليتين تتعلّقان ببعض مظاهر السّوء قولاً وعملاً وعذاب المرتكبين له وهاتان هما :

الآيتان رقم (١٥٠ ، ١٥١)

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٧١ .

تتحدّث الآيتان الكريمتان عن الكافرين الّذين أعدّ اللّه سبحانه وتعالى لهم عذاباً مهينًا فى جهنّم وبئس المهاد . إنّ أولى هذه الفئات يعنيها القول « إنّ الّذين يكفرون باللّه ورسله » وهؤلاء هم الّذين يكفرون باللّه تعالى بمختلف صور الكفر، ويكفرون برسل اللّه تعالى أجمعين . ويجمل بنا أن نقرّر أنّ الكفر بمعنى إنكار وجود اللّه تعالى لم يكن معروفًا فى القديم على نطاق واسع على غرار ما نجده الآن من اعتناق دول وشعوب لهذا النّوع من الإلحاد . وإنّما كان معروفًا الفينة بعد الفينة ولدى بعض الأفراد أو الجماعات . وبهذا يتبيّن أنّ عصرنا الّذى نعيش فيه الآن أسوأ فى بعض جوانبه من عصر الجاهليّة الجهلاء .

وإنّ بعض فئات هؤلاء الكافرين تفرّق بين اللّه وتعالى ورسله ، فهى من ناحية تزعم أنّها تؤمن باللّه تعالى ، ومن ناحية أخرى تكفر برسل اللّه تعالى أجمعين . إنّ هؤلاء يريدون أن يتّخذوا لهم سبيلاً بين الإيمان والكفر .

وإنّ بعض فئات هؤلاء الكافرين تفرّق بين اللّه تعالى ورسله بأن تؤمن ببعض الرّسل وتكفر ببعض . وقياساً على ذلك هى تؤمن ببعض الكتب السّماوية وتكفر ببعض . ويلحق بهذا النّوع من الكفر أنّ من هؤلاء الكافرين من يؤمن ببعض الكتاب الواحد ويكفر ببعض .

إنّ اليهود مثلاً يؤمنون بموسى عليه السّلام وبالأنبياء السّابقين عليه ويؤمنون بالتّوراة ويكفرون بكلّ من عيسى ومحمّد عليهما وعلى جميع النّبيّين صلوات اللّه تعالى وسلامه ، كما يكفرون بكلٍّ من الإنجيل والقرآن .

وإنّ النّصارى يؤمنون بعيسى عليه السّلام وبالأنبياء السّابقين عليه ويؤمنون بالإنجيل ويكفرون بمحمّد ﷺ وبالقرآن الكريم الّذى أوحاه اللّه تعالى إليه . إنّ هؤلاء جميعاً يريدون أن يتّخذوا سبيلاً بين الإيمان والكفر .

وإنّ اليهود مثلا يفادون أسرى اليهود بأموالهم وهم مأمورون فى التّوراة بذلك ، فهم يؤمنون بهذا البعض من التّوراة ، بينما هم يخرجون إخوانهم فى العقيدة من ديارهم ويقتلونهم وهم منهيّون فى التّوراة عن ذلك ، فهم يكفرون

بهذا البعض من التّوراة . وقد أشارت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة[١] إلى ذلك وإلى خزيهم العظيم فى الدّنيا وعذابهم الأليم فى الآخرة. قال تعالى : ﴿ثمّ أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخرِجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أساري تفادوهم وهو محرّمٌ عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزىٌ فى الحياة الدّنيا ويوم القيامة يُردّون إلى أشدّ العذاب . وما الله بغافلٍ عمّا تعلمون﴾ وقد عبّر عن قتلهم إخوانهم فى العقيدة بالقول فى الآية الكريمة : ﴿ ثمّ أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ إنّ الأخوّة الإيمانيّة تغلو قيمتها حتّى تكون بمنزلة نفس الإنسان ذاته .

إنّ من كانت تلك صفاتهم هم الكافرون حقّا ، لأنّ للإيمان أركانه ، ويجب أن تكون تلك الأركان كاملةً غير منقوصة . إنّ نقص أىّ جزءلركنٍ من أركان الإيمان أو نقص ركنٍ واحدٍ من أركانه بمثابة إنكار الإيمان كلّه بأركانه كلّها . وإنّ لأولئك الكافرين عذابًا مهينًا يوم القيامة ، وخزيًا مبينًا فى هذه الحياة الأولى .

وإذا كانت الآيتان الكريمتان تحدّثتا عن الكافرين وعقابهم فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن المؤمنين وثوابهم فإلى :

الآية رقم (١٥٢)

قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

إنّ أوّل ما يلفت النّظر بالمقارنة بين الحديث عن المؤمنين هنا وبين الحديث عن الكافرين فى الآية الكريمة قبل السّابقة أنّ صيغة الزّمن الماضى هى الّتى

(١) الآية : ٨٥ .

تستعمل هنا ، وأنّ صيغة الزّمن المضارع هى الّتى تستعمل هنالك . والمعروف أنّ الزّمن المضارع يفيد التّجدّد والاستمرار ، والمعروف أنّ كلّ فئات الكافرين الّتى أشارت إليها الآية الكريمة موجودةٌ حتّى يوم النّاس هذا ، فالكافرون متجدّدون والكفر مستمرّ ، وذلك مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم .

وبشأن القول : ﴿ والّذين آمنوا باللّه ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم﴾ إنّما يراد به أتباع محمّد بن عبد اللّه ﷺ ، فهم الّذين آمنوا باللّه تعالى وَحْدَهُ لا شريك له ربّاً ، وبمحمّد ﷺ نبيّاً ورسولاً ، وبالقرآن الكريم دستوراً ، وبالإسلام دينًا .

وإنّ من مقوّمات الإيمان فى هذا الدّين الإيمان بكلّ الرّسل وبكلّ الكتب السّماويّة ، فلا مجال مطلقًا للإيمان ببعض الرّسل والكتب ، والكفر بالبعض الآخر . إنّ أيّ تفرقة مستقبلاً بين أحد من رسل اللّه تعالى ينفى الإيمان ويوقع فى الكفر والعياذ باللّه تعالى . ولا فرق فى هذه الحال بين من كفر باللّه ورسله وبين من فرّق بين أحدٍ من رسله . إنّ الإيمان يجب أن يكون كاملاً . وإنّ الإيمان الكامل من نعوتَ أمّة محمّد بن عبد اللّه ﷺ وَحْدَها ، ولهذا كانت هى المعنيّة فى الآية الكريمة الّتى تقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالى سوف يؤتيها أجورها ، هكذا فى صيغة الجمع « أجور » فى الجنّة التى فيها ما لاعينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وإنّ من وفّقه اللّه سبحانه وتعالى فحقّق هذا الكمال من الإيمان سوف يحييه اللّه تعالى الحياة الطّيّبة على نحو ما جاء فى سورة النحل(١) قال تعالى ﴿من عمل صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحْسَنِ ما كانوا يعملون ﴾ وإنّ من وفّقه اللّه تعالى فحقّق هذا الكمال من الإيمان سيستخلفه اللّه تعالى فى الأرض وسيمكّن له دينه دين الإسلام الّذى رضيه اللّه له وأكمله له على نحو ما جاء فى سورة النّور(٢) قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكّننّ لهم

(١) الآية : ٩٧ .

(٢) الآية : ٥٥ .

دينهم الّذى ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى لا يشركون بى شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

وحينما ننظر إلى التّذييل فى الآية الكريمة : ﴿ وكان اللّه غفوراً رحيمًا﴾ من زاوية التّذييلات فى القسم نستطيع أن نتبيّن فى آية كريمة سابقة القول : ﴿إن تبدوا خيراً أو تُخفوه أو تعفو عن سوء فإنّ اللّه كان عفواً قديراً﴾ وبناءً على ذلك نستطيع أن نرتّب الصّفات فى الآيتين الكريمتين وفق ورودها فيهما « عفواً قديراً » «غفوراً رحيمًا » وسبق أن تبيّنّا علاقة كلّ من العفو والقدرة بمعنًى من معنيي الآية الكريمة ، وسبق أن تبيّنّا أنّ الرحمة تتضمّن المغفرة بمعنى ستْر الذّنب إثر ترك المؤاخذة عليه ، وأن المغفرة تتضمّن العفو بمعنى ترك المؤاخذة على الذّنب .

وهكذا يتجلّى التّدرج من عفو بمعنى ترك المؤاخذة على الذّنب ، إلى عفو عن قدرة وهذا النّوع من العفو أحسن وقعاً وألذّ طعمًا ، إلى مغفرة بمعنى ستر الذّنب عن الخلائق يوم الحساب ، إلى رحمةٍ للّه تعالى واسعةٍ تسع كلّ أحدٍ وكلّ شئ .

فما موقع التّذييل بالقياس إلى صدر الآية الكريمة ؟ إنّ الآية الكريمة الّتى أشارت إلى الإيمان باللّه تعالى وبكلّ الرّسل ، وإلى أنّ الإيمان كلٌّ لا يتجزأ ، تفتح لمن زلّت به النّعل وقتًا من الأوقات فكفر باللّه تعالى وبرسله وفرّق بين اللّه تعالى ورسله واتّخذ بين الإيمان والكفر سبيلا ، وتفتح الآية الكريمة لمن زلّت به النّعل باب التّوبة إلى اللّه تعالى والإيمان وعمل الصّالحات فتبشّره بأنّ اللّه سبحانه هو العفوّ وهو الغفور وهو الرّحيم .

إنّ على غير المسلمين فى كلّ زمان ومكان ، ابتداءً بأهل الكتاب من يهود ونصارى ، أن يتحوّلوا مسلمين للّه ربّ العالمين ، فلعلّ مغفرة اللّه تعالى أن تشملهم، ورحمته جلّ وعلا أن تسعهم ، حينما يؤمنون باللّه تعالى وحده لا شريك له ربّاً ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمّد ﷺ نبيّاً ورسولاً ، وبالقرآن الكريم المصدّق للكتاب قبله المهيمن عليها منهجاً ودستوراً .

(١٩)

من صفات أهل الكتاب السيّئة
وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين
الآيات (١٥٣ ـ ١٦٢)

يَسْـَٔلُكَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟
مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾
فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

من سمات الكافرين الّذين تحدّث عنهم القسم السّابق أنّهم يفرّقون بين اللّه تعالى ورسله بأن يؤمنوا ببعض الرّسل ويكفروا ببعض . ومن هؤلاء الكافرين بنو إسرائيل الّذين يتحدّث عنهم هذا القسم . إنّ السّياق يبيّن أنّ بنى إسرائيل يسألون المصطفى ﷺ أن ينزّل عليهم من السّماء كتابا غير القرآن الكريم كالتّوراة الّتى نزلت مكتوبةً وجملةً واحدة . وبسبب تشابه بنى إسرائيل فى الصّفات ورضا المتأخّرين عن السّابقين يسلّى السّياق المصطفى ﷺ ويقول له : إنّ بنى إسرائيل الّذين بعث اللّه تعالى فيهم موسى عليه السّلام وأوحى إليه بالكتاب السّماوىّ ذى الصّفات الّتى يقترحها بنو إسرائيل صفات للكتاب الّذى يقترحونه عليك ، لم يؤمنوا بذلك الكتاب وسألوا موسى عليه السّلام أكبر من ذلك بأن يُريهُم موسى عليه السّلام ربّه جلّ وعلا جهرة وعِيانا ! لقد أخذتهم الصّاعقة بسبب ظلمهم ، ثمّ بعثهم اللّه تعالى أحياء مرّةً أخرى . واتّخذوا العجل إلهًا وتابوا إلى اللّه تعالى فقبل توبتهم بعد عقاب . وبسبب نقضهم الميثاق بأن يعملوا بالتّوراة رفع اللّه تعالى فوقهم جبل سَيْناء كأنّه ظُلّة وأيقنوا أنّه واقعٌ بهم وقالوا وقتها سمعنا وأطعنا . وأُمِروا بأن يدخلوا باب القرية سجّدًا بقيادة يوشع بن نون عليه السّلام بعد انتهاء مدّة التّيه وموت هارون وموسى عليهما السّلام ، وبأن يسألوا اللّه تعالى أن يحطّ عنهم ذنوبهم ، فبدّلوا الفعل وبدّلوا القول استهزاءً . وأمروا بألاّ يعتدوا باصطياد السّمك يوم السّبت فاحتال سكان مدينة أيْلة على البحر الأحمر بحبس السّمك يوم السّبت واصطياده بعد ذلك فمسخوا قردة وكان ذلك فى فترة متأخّرة . وهكذا ينقض بنو إسرائيل الميثاق، ويكفرون بآيات اللّه تعالى ، ويقتلون الأنبياء بغير حقّ، ويقولون للمصطفى ﷺ بأنّ قلوبهم غلفٌ لا تفهم القرآن الكريم ، فيختم اللّه تعالى ويطبع على قلوبهم .

إنّ هذا القول للمصطفى ﷺ من مظاهر التّفريق بين اللّه تعالى ورسله ، وكذلك كفرهم بعيسى عليه السّلام الّذى استحقّوا بسببه وبسبب الصّفات السّيئة السّابقة اللّعن ، وبسبب قولهم على مريم الّتى أحصنت فرجها بهتاناً عظيمًا ، وقولهم متبجّحين ﴿ إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول اللّه﴾ والمعروف أنّهم

لا يؤمنون بأنّ عيسى عليه السّلام ابن مريم ، ولا يؤمنون بأنّه رسول اللّه تعالى. ولمّا كان ربّ العزّة قد رفع عيسى عليه السّلام إليه ، فقد بيّن السّياق أنّهم ما قتلوه عليه السّلام وما صلبوه ، كما بيّن أنّ الّذين اختلفوا فى عيسى عليه السّلام لفى شكٍّ من قتله عليه السّلام ، لأنّ الوجه وجه عيسى والجسد ليس بجسد عيسى إنّما هو جسد الشّخص الّذى أنزل اللّه تعالى عليه شبه عيسى ، ويقرّر السّياق أنّ كلّ واحدٍ من أهل الكتاب الأحياء حينما ينزل عليه السّلام إلى الأرض مرّةً أخرى سوف يؤمن بعيسى قبل موته عليه السّلام ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ .

ويستمرّ السّياق يذكر الأسباب الّتى من أجلها حرّم اللّه تعالى الطّيّبات على بنى إسرائيل ، إنّه الظّلم ، والكفر ، والصّدّ عن سبيل اللّه تعالى كثيرا، وأخذ الرّبا الّذى نهاهم اللّه تعالى عنه ، وأكل أموال النّاس بالباطل .

ويستثنى السّياق فريقين من بنى إسرائيل من عذاب اللّه تعالى الأليم وهما الرّاسخون فى العلم والمؤمنون . وقد تقدّم العلم لأنّ العلم الصّحيح يؤدى إلى الإيمان الصّحيح كما قال تعالى : ﴿ فاعلم أنّه لا إله إلا اللّه ﴾ ويذكر السّياق ركنين من أركان الإسلام الّذى اعتنقه الرّاسخون فى العلم والمؤمنون وهما إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة ، كما يذكر ركنين من أركان الإيمان وهما الإيمان باللّه تعالى وباليوم الآخر . إنّ لهؤلاء المؤمنين أجراً عظيماً يوم القيامة الّذى لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم .

الآية رقم (١٥٣)

قال تعالى : يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾

سبب النّزول :

عن محمّد بن كعب القرظىّ قال : جاء أناسٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إنّ موسى جاء بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح من عند الله حتّى نصدّقك فأنزل الله : يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتابا من السّماء، إلى قوله : وقولهم على مريم بهتاناً عظيمًا(١) والمعنى أنّ اليهود سألوا رسول الله ﷺ أن يُنْزِل عليهم كتاباً من السّماء كما نزلت التّوراة على موسى مكتوبة(٢) وجملةً لا مفرّقًا(٣) .

من الفئات الّتى كانت تسكن بيئة المدينة المنوّرة آنذاك اليهود . ومع أنّ لليهود قبل الإسلام دينهم ومجتمعهم الخاصّ بهم وشبه المغلق عليهم فقد كانوا متمكّنين من اللّغة العربيّة للدّرجة الّتى ينظمون فيها روائع الشّعر كفحول شعراء العرب . ومع أنّ هذه الميزة كان يصحّ أن تكون مسعفةً لليهود على تدبّر القرآن الكريم وتذوّقه فإنّهم وقفوا من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد موقف العداء ككفّار مكّة ومشركى العرب . وإلى اشتراك اليهود والمشركين فى هذا الموقف العدائىّ من دين الإسلام أشار قوله تعالى من سورة المائدة(٤) ﴿لتجدنّ أشد النّاس عداوةً للّذين آمنوا اليهود والّذين أشركوا ﴾ وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تشير إلى مظهرٍ من مظاهر تعنّت هؤلاء اليهود .

إنّ الآية الكريمة يجئ فيها فى صيغة الزّمن المضارع الدّالّ على التّجدّد والاستمرار جملة : « يسألك أهل الكتاب » ومع أنّ سؤال أهل الكتاب مستهجنٌ لأنّه يتعلّق بسؤالهم المصطفى ﷺ أن ينزّل عليهم كتابًا ذا صفة بعينها فإنّ القرآن الكريم الّذى يرشدنا إلى الدّعوة إلى سبيل ربّنا بالحكمة والموعظة

---

(١) تفسير الطبرى ٦/٦ ، وانظرأسباب النّزول للواحدى ٢١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٧٢/١ ، وتفسير القرطبى ٢٠٠٢ ، وتفسير ابن عطية ٢٧٧/٤ .

(٣) الجلالين .

(٤) الآية : ٨٢ .

الحسنة يشير إلى اليهود بأحب الألفاظ إليهم وأكثرها دلالةً على فضل اللّه تعالى عليهم وحبّه جلّ وعلا لهم بأنّهم أهل الكتاب : « يسألك أهل الكتاب ».

وحينما تشير الآية الكريمة إلى اليهود بأنّهم أهل الكتاب ، أي أتباع التّوراة الّتى أوحاها اللّه تعالى إلى موسى عليه السّلام ، يكون في ذلك التّنبيه إلى وجوب اتّباع اليهود التّوراة وضرورة تطبيقهم تعاليمها ، وفى مقدّمة هذه التّعاليم تصديق محمّد بن عبد اللّه ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ، الّذى يجده اليهود مكتوبًا عندهم فى التّوراة بنعته عليه الصّلاة والسّلام ، والّذى أمروا باتّباعه حينما يبعث ، والّذى أخذ اللّه تعالى الموثق من النّبيّين أن يؤمنوا به إذا بُعث وهم أحياء ، وأن يؤمن به كلّ أتباع النّبيّين صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين.

وإنّ بنى إسرائيل حينما يؤمنون بالكتاب السّماويّ الّذى أوحاه اللّه تعالى إلى نبيّهم موسى عليه السّلام والّذى أنزله اللّه تعالى عليهم ، لن توجد لديهم الحاجة لأن يسألوا المصطفى ﷺ أن ينزّل عليهم كتاباً من السّماء ، لأنّهم آمنوا فعلا باللّه تعالى واتّبعوا القرآن الكريم النّور المبين الّذى أنزله اللّه تعالى لهداية عباده ، وبذلك يكونون قد طبّقوا تعاليم التّوراة فعلاً .

وإنّ هذا القول فى الآية الكريمة : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتابًا من السّماء ﴾ يُشتَمّ منه الإنكار على بنى إسرائيل هذا السؤال ، لأن خير الكتب وأشرفها والمصدّق لها والمهيمن عليها والمعجزة والمنهج موجودٌ ذلك كلّه فى القرآن الكريم الّذى لازال ينزل تباعاً غضّا طريّا على قلب المصطفى ﷺ ، فلِمَ سؤال بنى إسرائيل المصطفى ﷺ كتاباً غير القرآن الكريم ينزل من السّماء ؟ إنّ القرآن الكريم معجزٌ دون سائر الكتب السّماويّة ، وإن القرآن ينفرد بين سائرها بأنّه هو المعجزة والمنهج معاً . إنّ سؤال بنى إسرائيل إذاً ضربٌ من التّعنّت والحسد والكفر بنعم اللّه تعالى وعدم الامتثال لأوامر اللّه تعالى .

وإنّ هذه المعانى الّتى أوحى بها القول : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزّل

عليهم كتاباً من السّماء ﴾ يصرّح بما هو أبعد منها القول بعد ذلك : ﴿ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا اللّه جهرة ﴾ والمقصود تسلية المصطفى ﷺ والتسرية عنه وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام . والمعنى أنّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إذا كان بنو إسرائيل المعاصرون لك قد كفروا بك لأنّك لم تُبْعَثْ فيهم ولكن بُعِثْت فى العرب الأمّيّين قد سألوك من باب التّعنّت أن تنزّل عليهم ، وليس على غيرهم ، كتابًا من السّماء كألواح موسى عليه السّلام الّتى نزلت مكتوبةً وجملةً واحدة ، فقد سألوا موسى عليه الصّلاة والسّلام الّذى بعثه اللّه تعالى فيهم وأخرجه من بين ظهرانَيْهِمْ ويتكلّم لغتهم وأوحى إليه بالتّوراة الّتى فيها نورٌ وهدىً يهتدون بها من الضّلالة ، فقد سألوا موسى عليه السّلام ما هو أكبر من إنزال كتاب آخر غير التّوراة إليهم : «فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا اللّه جهرةً» وأرنا ربّنا عِياناً نعاينه وننظر إليه(١) وإلى هذا السّؤال الخطير والجراءة على موسى عليه السّلام ، بل على اللّه تعالى أشار قوله تعالى من سورة البقرة(٢) ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى اللّه جَهْرَةً فأخذتكم الصّاعقة وأنتم تنظرون . ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون﴾ .

وإنّما كان سؤال بنى إسرائيل موسى عليه السّلام أن يريهم اللّه تعالى عِيانًا : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾ بعد أن عاد موسى عليه السّلام من ميقات ربّه أربعين ليلةً لمناجاة ربّه جلّ وعلا بجبل الطّور(٣) وصيامه أربعين يومًا ، بعد أن عاد موسى عليه السّلام ومعه التّوراة. جاء فى سورة الأعراف(٤) قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشرٍ فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة . وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى

(١) تفسير الطبرى ٦/٧.
(٢) الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ .
(٣) تفسير القرطبى ٣٧١ ، وتفسير ابن كثير ١/١٠٤ ، وتفسير الطبرى ١/٢٥٧ .
(٤) الآية : ١٤٢ .

وأصلح ولا تتّبع سبيل المفسدين ﴾ وقولُه تعالى[١] :﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على النّاس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشّاكرين. وكتبنا له فى الألواح من كلّ شئ موعظةً وتفصيلاً لكلّ شيء فخذها بقوّة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين ﴾ إنّ موسى عليه السّلام حينما عاد إلي قومه بالتّوراة كانوا فى تلك الأثناء قد عبدوا العجل فغضب عليه السّلام للّه غضبته المشهورة . ولمّا سكت عنه عليه الصّلاة والسّلام الغضب ، أمر قومه أن يأخذوا كتاب اللّه تعالى الّذى فيه أمره الّذى أمرهم به، ونهيه الّذى نهاهم عنه فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت . لا واللّه حتى نري اللّه جهرةً حتّى يطّلع اللّه علينا فيقول هذا كتابى فخذوه، فماله لا يكلّمنا كما يكلّمك أنت يا موسى فيقول هذا كتابى فخذوه[٢] لقد أشارت الآيتان الكريمتان من سورة البقرة إلى سؤالهم وعقابهم ، وجاء هنا قوله تعالى : ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا اللّه جهرةً فأخذتهم الصّاعقة بظلمهم﴾ إنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : إنّ بنى إسرائيل إذا كفروا بالقرآن الكريم وسألوك أن تنزّل عليهم كتاباً من السّماء مكتوباً وجملةً واحدةً كالتّوراة فقد كفروا بالتّوراة الّتى فيها صفة الكتاب الّذى يسألونك إنزاله عليهم من السّماء ، وتجاوزوا سؤال موسى عليه السّلام كتاباً سماوياً آخر إلى سؤالهم موسى عليه السّلام أن يريهم اللّه تعالى عِياناً !.

ومن البيّن أنّ المعاصرين للمصطفى ﷺ سألوه أن ينزّل عليهم الكتاب ، وأنّ المعاصرين لموسى عليه السّلام سألوه أن يريهم اللّه تعالى جهرةً ، وإنّما صحّ نسبة الطّلب للمتأخّرين لتشابه السّلف والخلف فى الصّفات ولرضا الخلف عمّا أتى السّلف من قبيح الأقوال والأفعال .

وإنّ بنى إسرائيل المعاصرين لموسي عليه السّلام ، الّذين اتّخذوا العجل إلهاً معبودًا من دون اللّه مدّة ذهاب موسى عليه السّلام إلى ميقات ربّه لمناجاته

(٥) سورة الأعراف : ١٤٤ ، ١٤٥ .

(١) انظر تفسير الطبرى ١/ ٢٣٢ ، ٢٣١.

بالجبل أربعين ليلةً وصيام أربعين يوماً ، قد جاء عنهم بعد ذلك فى الآية الكريمة القول : ﴿ثمّ اتّخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البيّنات فعفونا عن ذلك﴾ فما معنى حرف العطف « ثمّ » وهل هو على بابه فى الآية الكريمة وقد عرفنا أنّ اتّخاذ بنى إسرائيل العجل إلهًا يسبق سؤالهم موسى عليه السّلام أن يريهم اللّه تعالى جهرة ؟ من المعروف أنّ حرف العطف ثمّ يدلّ على التّرتيب مع التّراخى. وهو هنا ليس على بابه لأنّ الآية الكريمة تتّخذ مَن سؤال بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ أن ينزّل عليهم كتاباً من السّماء وسيلةً للتّحدّث عن سؤالٍ للسّلف أخطر من سؤال المعاصرين،وإنّ سؤال السّلَف هو أن يريهم موسى عليه السّلام اللّه تعالى . ولاشكّ أنّ بنى إسرائيل إنّما سألوا موسى عليه السّلام هذا السّؤال متخطّين كل حدود ، متجاوزين كلّ توقّع ، متغلّبين على كلّ حاجزٍ خارجيّ ومانعٍ داخليّ ، وفى كلّ ذلك من المشقّات النّفسيّة ما لا يخفى. وإنّ هذه الملابسات تذكّرنا باستعمال القرآن جملة كسب فى الخيرات دليل اليسر والسّهولة والانسياب ، وجملة اكتسب فى السّيّئات دليل العسر والصّعوبة وتخطّى الحواجز النّفسية الدّاخليّة والأحكام الخارجيّة والاعتداء على حدود اللّه تعالى. إنّ «ثمّ» له كلّ هذه الأبعاد النّفسيّة والمعنويّة .

وإنّ الآية الكريمة بقصد التّنبيه إلى أنّ تخطّي بنى إسرائيل للحدود ليس له حدود فعلى المصطفى ﷺ أن يتوقّع من القوم ذلك وما هو أسوأ من ذلك ، تتحوّل إلى بنى إسرائيل المعاصرين لموسى عليه السّلام الّذين سألوه أن يريهم اللّه تعالى عِياناً ، وتضيف إلى ذلك بأنّ القوم ليس لطيشهم نهاية ، فهم مرّةً يسألون موسى عليه السّلام أن يريهم اللّه تعالى جهرةً ، وتارةً يتّخذون العجل إلهًا معبوداً من دون اللّه تعالى .

ومتى يتّخذ بنو إسرائيل العجل إلهًا ؟ من بعد ما جاءتهم البيّنات ووصلت إليهم فعلاً آيات موسى عليه السّلام البيّنات وحججة الواضحات فى مصر وفى الشّام، ومن بعد أن دعاهم إلى عبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له .

وهكذا يتبيّن أنّ «ثمّ» الّذى تفيد التّرتيب مع التّراخى أو البعد يهتمّ بالبعد ويشير إلى أنّ بنى إسرائيل لا ينتهون من اعتداء على حرمةٍ من حرمات اللّه تعالى حتّى يتورّطوا فى اعتداءٍ آخر على حرمةٍ أو حُرَم . وتشير الآية الكريمة إلى عفو اللّه تعالى عن بنى إسرائيل الّذين عبدوا العجل فَلَمْ يستأصلهم جلّ وعلا وإن كان قد عاقبهم جلّ وعلا عقاباً أليماً فى الدّنيا بين يدى قبوله جلّ وعلا توبتهم . وقد أشارت هذه الآيات الكريمات من سورة البقرة[١] إلى عبادة بنى إسرائيل العجل ، وعذاب اللّه تعالى لهم بين يدى قبوله جلّ علا توبتهم ، وإلى سؤالهم موسى عليه السّلام بعد ذلك أن يريهم اللّه تعالى جهرة قال تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العِجْلَ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنّه هو التّوّاب الرّحيم . وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى اللّه جهرةً فأخذتكم الصّاعقة وأنتم تنظرون . ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون﴾ .

وقد جعل اللّه توبتهم من الّذى صنعوه وابتدعوه أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده ، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، ثمّ أحياهم اللّه عزّ وجل[٢] .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ وآتينا موسى سلطانًا مبينا﴾ والمعنى أنّ اللّه سبحانه وتعالى أعطى موسى عليه السّلام سلطانًا مبيناً بمعنى الآيات البيّنات والأدلّة الواضحات والحجج القاهرات .

وإنّ من ألطف ما نودّ الوقوف عنده القول : « فعفونا عن ذلك » الّذى يشير إلى العفو ويقف عنده . وقد عرفنا أنّ العفو بمعنى ترك المؤاخذة على الذّنب ، وأنّ المغفرة بمعنى ستر الذّنب، ويدخل تحت ذلك العفو بمعنى ترك

(١) الآيات : ٥٤ - ٥٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٧٣ .

المؤاخذة علي الذّنب. إنّ الآية الكريمة لم تستر الذّنب الّذى ارتكبه بنو إسرائيل كما تستره الآيات الكريمات الأخر ، ولهذا اكتفت الآية بالإشارة إلى ترك المؤاخذة على الذّنب أى العفو الّذى عبّرت عنه الآية الكريمة بالقول : « فعفونا عن ذلك » .

والآية الكريمة التّالية تشير إلى بعض تعنّت بنى إسرائيل وجراءتهم على رسول اللّه ﷺ بل على اللّه تعالى فإلى :

الآية رقم (١٥٤)

قال تعالى :

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن طلب بنى إسرائيل من موسى عليه السّلام أن يريهم اللّه تعالى جَهْرَةً بعد أن عاد بألواح التّوراة ، وعن اتّخاذهم العجل إلـهاً فى أثناء ذهاب موسى عليه السّلام لميقات ربّه جلّ وعلا من أجل تلّقى التّوراة . وإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تتحدّث فى ثلاثة أمور وقعت من بنى إسرائيل فى أزمنة متتابعة مختلفة. إنّ رفع اللّه سبحانه وتعالى جبل الطّور فوق بنى إسرائيل كان على عهد موسى عليه السّلام حينما استثقلوا تعاليم التّوراة وقالوا لموسى عليه السّلام الّذى أمرهم بتطبيق تعاليمها سمعنا قولك وعصينا أمرك ، فكان التّهديد بإسقاط الجبل عليهم إن لم يقبلوا التّوراة فقبلوها. وإنّ أمرهم بدخول الباب ركّعاً، والمراد باب مدينة الجبّارين الّتى اختلف المفسّرون فى تعيينها(١) ومنهم من قال إنّها أريحاء ، ومنهم من قال إنّها

(١) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٢/٣٧ ، وتفسير القرطبى ٣٤٩ .

بيت المقدس[١] ، إنّ أمرهم بدخول باب المدينة ركّعًا كان بعد انتهاء غمّة التّيه فدخلوا المدينة بقيادة يوشع بن نون فتى موسي عليه السّلام وقد أكرم اللّه تعالى يوشع بنعمة النّبوّة . ولم يدخل بنو إسرائيل المدينة سجّدًا كما أمروا ولم يقولوا ما أمروا بقوله فى أثناء الدّخول وبذلك خالفوا فعلاً وقولاً . وإنّ اعتداء بنى إسرائيل بصيد الحيتان بعد يوم السّبت إثر حبسها يوم السّبت وبذلك خالفوا تعاليم التّوراة كان فى وقت لاحق . وهكذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة تتحدّث فى ثلاث مسائل متعلّقة ببنى إسرائيل فى أزمنة متعاقبة مختلفة ، وإنّ هذا التّعاقب مرشّح للحديث بعد ذلك فى أمورٍ أخرى متعاقبةٍ . فمع كلٍّ من الأمور الثّلاثة على حدة .

قال تعالى : ﴿ ورفعنا فوقهم الطّور بميثاقهم ﴾ المعنى : ورفعنا فوقهم جبل الطّور بما أعطوا اللّه الميثاق والعهد لنعملنّ بما فى التّوراة[٢] والباء سببية أى بسبب نقض ميثاقهم[٣] والميثاق عقدٌ مؤكّدٌ بيمينٍ وعهد[٤] . وإلى أخذ الميثاق على بنى إسرائيل أن يعملوا بالتّوراة ونقضهم الميثاق أشار قوله تعالى فى سورة البقرة[٥] :﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون . ثمّ تولّيتم من بعد ذلك فلولا فضل اللّه عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ وقوله تعالى[٦] : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا . قالوا سمعنا وعصينا وأُشْرِبوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ وقوله تعالى فى سورة الأعراف[٧] : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظُلّةٌ وظنّوا أنّه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون﴾.

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧ .
(٢) تفسير الطبرى ٦/ ٨ .
(٣) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣/ ١٩٥ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى « وثق » ٥١٢ .
(٥) الآية : ٦٣ ، ٦٤ .
(٦) سورة البقرة : ٩٣ .
(٧) الآية : ١٧١ .